١٩٣

HARLEQUIN

روايات احلام

دمعة على ثوب أبيض!

كيت والكر

www.elromancia.com
مرمورية

دمعة على ثوب أبيض!

- لا...

خرجت هذه الكلمة بقسوة وحشية فقطعت سؤال الكاهن وحل محله الصمت الذي أطبق على الحاضرين.

عاد الكاهن يقول: «إيدان؟ هل تقبل بإينديا زوجة لك؟..»

- لا...

وقعت هذه الكلمة كالصاعقة على رأس إينديا... لا يعقل أنه قال «لا»!...

- لا يمكن أن تعني...

انقضت يده عليها بسرعة يجذبها بعنف وقسوة:

- لا... لن أتزوج بك في السراء وفي الضراء، في الصحة وفي المرض، في الغنى وفي الفقر...

وخرج إيدان وولف من حياة العروس المحطمة بدون اكتراث كمن يدوس زهرة مرمية... وكما رحل، عاد... بعد سنة. فخبأت إينديا دموع الذل في عينيها خلف ستار اللامبالاة، لن تكون لعبة سهلة هذه المرة. لكن إيدان ما زال يسعى للانتقام، والثمن الذي ستدفعه الآن سيكون أكبر...

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	الإمارات: ١٠ دراهم	مصر: ٥ جنيه	ليبيا
سوريا: ٧٥ ل.س	قطر: ١٠ دراهم	المغرب: ٤٥ درهم	اليمن
الأردن: ١,٥٠ دينار	البحرين: ١ دينار	تونس: ٢ دينار	السودان
الكويت: ٧٥٠ فلس	السعودية: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال	العراق

كيت والكر

ولدت «كيت والكر» في «نوتنغهامشير»، لكنها كانت دائماً تشعر أن جذورها متأصلة في «يوركشير»، لأنها ترعرت هناك. التقت زوجها في الكلية وعملت أولاً كمشرفة على مكتبة لكتب الأطفال. بعد ولادة ابنها الأول عادت إلى الكتابة التي أحبتها في طفولتها. عندما لا تعمل، تكرس بعضاً من وقتها لعائلتها وقططها الثلاث وولعها بهواية التخريم وجمع التحف ومشاهدة الأفلام والمسرحيات. . . والقراءة طبعاً.

دمعة على ثوب أبيض

كيت والكر

روايات احلام

www.elromancia.com

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش م م بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
The groom's revenge
First published in Great Britain 1997
Harlequin Mills & Boon Limited

© Kate Walker 1997
Translation © Dar El-Farasha- 2000

ISBN 9953 - 15 - 006 - 0

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص ب ٨٢٥٤/١١ هاتف/فاكس: ٨٤١٤٠٢ - ١ - ٩٦١ - بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل. ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة. والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي

بكل إخلاص
أسرة أحلام

١ ـ أصابع باردة

ـ لا!....

كانت هذه الكلمة الوحيدة التي لم يتوقع أحد سماعها في مناسبة كهذه، فما كان لأي من الحشد في كنيسة القرية الصغيرة أن ينتظر حدوث أمر مماثل.

كلمة واحدة فحسب، غير أنها كانت كافية لإفساد جو السعادة والبهجة العارمة في يوم كان يفترض أنه من أروع أيام إيندیا فإذا به يتحول إلى أسوإ كابوس شهدته في حياتها.

قبل بضع ثوان، كان عمها الكاهن يبتسم مشجعاً الزوجين الماثلين أمامه، فتلاقت عيناه بعينيّ إيندیا الخضراوين عبر خمارها الرقيق الشفاف. قال الكاهن

ـ والآن نصل إلى أهم مرحلة في المراسم، وهي تكريسكما. «إيدان...»

كان الرجل الواقف إلى جانب ابنة أخيه قد اعتدلت قامته بشكل ملحوظ. وارتفع رأسه الداكن، وتراجعت كتفاه إلى الوراء... لفتت هذه الحركة البسيطة نظر إيندیا الذي تحول إليه على الفور، فرأت التوتر مرتسماً على وجهه، وعضلات فكه منقبضة. ولكن، سرعان ما تلاشى قلقها، واتسعت ابتسامتها المرتعشة وارتسمت بثقة أكبر على شفتيها.

ما كانت لتصدق أن هذا الرجل سيخاف في هذه اللحظات الهامة وحين أحست بخشيته انبعث الدفء في قلبها، ما جعلها تترك يدها لتنسل في يده ولكن أربكها قليلاً ألاّ يظهر «إيدان» أي تجاوب، واكتفى في المقابل بترك يدها ستقر في يده، دون أن تلتف أصابعه القوية حولها كما كانت تتوقع.

تناهى صوت عمها قائلاً:

- إيدان، هل تقبل بإيندیا زوجة لك...؟

انبعثت تلك الكلمات المألوفة التي سمعت مرّاتٍ عديدةً قبل ذلك، وتردد صداها في أرجاء الكنيسة الصغيرة القديمة.

خفق قلب إيندیا حين علمت أن اللحظة التي طالما انتظرتها قد حانت أخيراً. فبعد ثوانٍ قليلةٍ ليس إلا، سيكون كل شيءٍ رسمياً، وستصبح هي زوجة «إيدان». لن تكون بعد الآن «إيندیا مارشنت» بل «إيندیا وولف»..

- إلى أن يفرقكما الموت؟

إلى أن يفرقكما الموت! ستكون لإيدان وسيكون هو لها حتى آخر أيام حياتها.

كانت هذه الفكرة من الروعة بحيث شلت تفكيرها، فلم تع أن عمها قد توقف عن الكلام. وفي الوقت الذي أدركت فيه ذلك، كان الصمت المخيم قد طال أمده قليلاً. مرّت الثوانٍ تلو الأخرى وطال الانتظار والترقب اللذان تحولا إلى امتحانٍ لقدرة الأعصاب على الاحتمال.

- إيدان؟

كان لنداء «وليام مارشنت» المتسائل صدىً بين الحشد... فتعالت همسات الحاضرين بعفوية وفضول، ولم تتمكن «إيندیا» خلف خمارها المزدان بالنقوش من عدم الابتسام. فقد خطر لها أن عائلتها وأصدقاءها قد توقعوا ربما أن تخونها هي شجاعتها في هذه اللحظة الحاسمة، وليس العريس.

على الأقل، ليس هذا العريس تحديداً. «فإيدان وولف» أو «لون وولف» الذائع الصيت، معروف برجل الأعمال الفولاذي المتحجر القلب، أيعقل أن يفقد هذا الرجل ثقته بنفسه فتخونه الكلمات؟ أبداً!

أعاد عمها الكرة:

- إيدان، هل تقبل بـ...؟

- لا...

خرجت هذه الكلمة بقسوة تكاد تكون وحشية. فقطعت سؤال الكاهن ليحلَّ الصمت المطبق بشكل تام ومحكم.

- لا؟

كان لهذه الكلمة في رأس «إيندیا» وقع أشبه بالصاعقة التي تخلفها ضربة عنيفة على الرأس. وشعرت بالهواء ينسحبُ من رئتيها. لا يعقل أنه قال لا؟

ارتسمت الكلمة على شفتيها دون أن يصدر منهما أي صوت. وبعينيها الخضراوين اللتين أذهلتهما الصدمة، لم تتمكن سوى من التحديق إلى الرجل الذي أتت إلى هنا لكي تتزوجه. فامتقع وجهها وتلاشت ألوانه.

كانت ملامح «إيدان» الجانبية القاسية قد انعكست بوضوح على إحدى النوافذ الصغيرة. وكان رأسه الداكن الفخور شامخاً إلى أعلى، يكشف عن سعة عظامه المنحوتة التي أضفت على ملامحه قوةً.

انحدر خيط من أشعة الشمس عبر الزجاج الملون، فألقى الضوء على قامته الطويلة الصلبة، قبل أن يقع على بقعةٍ ناعمةٍ دافئةٍ من الحجر عند قدميه. لكن الرجل نفسه، لم يكن أي شيءٍ دافئاً وناعماً حين رأته إيندیا بهذا الشكل. تملكها شعور مفاجئ بأن أصابع باردة فظيعة قبضت على قلبها وعصرته بوحشية.

حاول عمها مجدداً وبصعوبة جلية: إيدان

مزّق القلق البادي في صوته الأجش المضطرب أعصاب إيندیا المتلفة فعضت على شفتها السفلى لتكتم رغبتها في إطلاق صيحةٍ أليمة.

وعاد عمها يكرر.

- قلت، هل تقبل...؟

- وقد أجبت بلا!

تحرك أخيراً وارتد لبواجه «إيندیا» وحين رأت تعابير وجهه، تمنت لو أنه أبقى رأسه حيث كان.

لم يكن هذا هو الرجل الذي عرفته! إن هذا المخلوق القاسي الملامح ذي العينين الداكنتين المتقدتين اللتين تسحقانها بلهيب من الازدراء، لم يكن الرجل الذي وقعت في حبه من رأسها حتى أخمص قدميها.

لاحظت نظراته الفظة التي مرت على وجهها الأبيض، التناقض الواضح بين وجنتيها الباهتتين وشلال شعرها الأسود الطويل المصفف.

لكن لم يظهر على وجهه أي أثر لانفعال أو عاطفة تبدي تأثره بمظهرها المسحق.

ـ إيدان.

ارتعشت عند التلفظ باسمه ولم تدر ما إذا كانت اليد التي عانقت ذراعه ستقدم لها بعضاً من الدعم. فقد خافت من الانهيار والوقوع أرضاً عند نعليه الأنيقين.

ـ أرجوك. لا تمزح.

كان ذلك جل ما استطاعت التفكير فيه. إنه بلا شك مزاحٌ رهيب... مزاحٌ كريه عديم الذوق. حاولت انتزاع ابتسامةٍ من شفتيها تظهر تفهمها.

لكن ابتسامتها قوبلت بفظاظةٍ عكستها نظرةٌ عدائيةٌ رافضةٌ. ثم انتزع يدها من ذراعه بحركةٍ قاسيةٍ، وقال: «إني لا أمزح يا عزيزتي».

حولت نبرته تربيتة يده إلى أفظع قذارة يمكن أن يعاملها بها. وأضاف قائلاً: «لقد قلت لا، وقد عنيت لا».

فما كان من الحشد على المقاعد الخشبية إلا أن حدق بصمت وذهول.

ـ أرجوك. كن جاداً.

فأجابها مؤكداً بأسلوب مهين وشرير:

ـ لم أكن قط جاداً كما الآن حبيبتي.

رددت قائلةً: ولكن...

بدا الأريج عبق الزهور كثيفاً، ما جعلها تشعر بالغثيان. فقالت:

ـ لا يمكن أن تعني...

ردد «إيدان» ذلك بتهكم:

ـ لا يمكن أن أعني؟

ثم أضاف:

ـ ما الذي لا يمكن أن أعنيه عزيزتي؟ يا إلهي، أيجب أن أهجئها لك؟ حسناً.

انقضت يده عليها بسرعة الثعبان وأمسك خصرها بشدةٍ يجذبها إليه بعنفٍ وقسوةٍ ما جعلها تلتف في نصف دائرةٍ لتواجه الحشد.

وبعينيها الهائمتين، رأت والدها في المقعد الأمامي وقد علا وجهه احمرار

الغضب والشحوب. وكان واقفاً على رجليه وقد تمسكت به والدتها بسرعةٍ بيدٍ عذرةٍ. فتذكرت بيؤسٍ أنه لم يرد لهذا الزواج أن يتم. لقد حذرها في البدء من ربط حياتها برجلٍ ذي صفاتٍ وسمعةٍ كسمعة «إيدان». غير أنه مؤخراً فقط، بدا أنه اعتاد على الفكرة وأذعن أمام تصميمها وقناعتها. وها هي الآن نادمة لأنها لم تقم وزناً لشكوكه.

أردف إيدن: «لنوضح الأمر تماماً. لا، لن أتزوج بك».

خرجت كل كلمةٍ بدقة موجهة للتأكد من عدم وجود أي سوء تفاهم.

ـ لن أتزوج بك في السراء وفي الضراء، في الصحة وفي المرض، في الغنى وفي الفقر ـ خاصة في الفقر ـ أو في أيٍّ من تلك الوعود التافهة تماماً، التي كنت تتوقعين مني أن أتلفظ بها بإذعانٍ أمام كل الحاضرين هنا.

أجفلها تهكمه وسخريته فانهارت آمالها وأحلامها لتتناثر حولها أشلاءً صغيرة. وكرد فعلٍ غريزيٍّ للدفاع عن النفس، حاولت رفع يديها لتسد بهما أذنيها. فأمسك بهما «إيدان» مرغماً إياها على إنزالهما مجدداً لتحدق عينا خشب الأبنوس بتينك العينين الخضراوين وقال:

ـ اسمعي أيتها اللعينة! أريد منك أن تسمعي ما سوف أقول. أريد منك أن تعلمي أني لن أتزوج بك الآن أو في أي وقت لاحق، وأني أفضل الموت على أن أسلم نفسي لمثل هذا السجن والإذعان لما أعتبره أسوأ نوعٍ من الأكاذيب.

ـ ولكن...

ـ لا.

ثم أفلت يدها كما لو أن الإمساك بها قد يصيبه بالعدوى. وأخذ نفساً عميقاً، ثم مرر أصابعه القوية بعنفٍ في شعره الأسود الناعم. وقال:

ـ آسف يا صغيرتي، لكن هكذا ستجري الأمور.

أبرزت أشعة الشمس ومضة البريق التي ترسلها بعض الشعيرات النحاسية في شعره الداكن. وجعلت حركة يده القاسية خصلة شعر واحدة تسقط على جبينه العريض. وحين استعادت ذاكرتها المناسبات العديدة في الماضي، التي كانت قادرةً فيها على رفع مثل هذه الخصلة المشاكسة عن وجهه، وجدت أصابعها متلهفةً لفعل

www.elromancia.com

ذلك. لو أنها تمكنت من لمسه...

غير أن وجهه وعينيه اللتين تقدحان الشرر خنقوا هذه الفكرة في مهدها - وفجأة باتت الحقيقة المرة من الصعوبة بحيث فاقت قدرتها على الاحتمال. فصرخت بحدة: «لست آسفاً البتة!».

اعتصر الألم أعماقها بقوة حين رأته يحني رأسه في تأكيد مستهتر لاتهاماتها. وقالت

- لست آسفاً لأنك... لأنك...

وعلقت الكلمات في حنجرتها... لأنك لا تهتم حتى... تلك الكلمات التي عجزت عن النطق بها لفظتها بشكل غير واضح، لتمنع نفسها من الاختناق من حدة الألم

لطالما علمت منذ بدء علاقتهما العاطفية الجارفة أن مشاعر «إيدان» لم تكن في الواقع تتطابق تماماً مع مشاعرها. فلم يكن هو من صعق بها، لذا لم تصدق يوماً أن هذا الشخص المذهل يرغب فيها حقاً، هذا الرجل الذي أفقدها رشدها واتزانها. فلم تتردد حين طلب منها الزواج في القبول فوراً، وكان أن أسرعت لإتمام الزفاف في أسرع وقتٍ ممكنٍ خوفاً من أن يغير رأيه.

لكن كيف بإمكانه أن يفعل ذلك؟ كيف يستطيع ببساطةٍ أن يقف هناك بهدوءٍ وبرودةٍ ورباطة جأشٍ، في حين أنه كان يحطم عالمها وحياتها كلياً مع كل كلمةٍ يتلفظ بها؟

- لا تفعل هذا

كان صوتها منخفضاً جداً، ولكنها تحكمت به بقوةٍ بحيث بدا ببرودة صوته هو وأضافت «لا تجعلني أكرهك».

فأجابها مردداً «كره».

ارتفعت كتفاه العريضتان المستقيمتان في حركةٍ رافضةٍ تكشف عن الازدراء واللامبالاة. فما كان منها إلا أن قالت:

- سوف أكرهك! سأكرهك من كل قلبي! إذا فعلت ذلك يا «إيدان» فلن أغفر لك أبداً، أبداً!

ونبسم، لقد تبسم فعلاً. غير أن شكل شفتيه لم يعكس أي دفءٍ أو أي أثر للدعابة، وقال جازماً: «حسناً، هذا جيد بالنسبة إليّ. ففي الواقع يا حلوتي إيندیا، هذا ما أريده تماماً».

وبابتسامته الكريهة، ارتدّ على عقبيه مبتعداً عنها بخطىً واسعةٍ، وكان صدى خطواته يحطم الصمت المذهول.

- لا!

دفعت إيندیا بخمارها المزركش بالنقوش القديمة إلى الوراء بغضب، لتكشف عن وجهٍ شاحبٍ برزت فيه عيناها الخضراوان البرّاقتان كحجري زمردٍ ملتهبين فوق وجنتيها العاليتين. وانقبض ثغرها المكتنز الواسع من التوتر، فقالت له:

- لا يمكنك أن تفعل هذا! لا يمكنك أن تتخلى عني ببساطة!

حدجها «إيدان» بنظرةٍ سريعةٍ قاسيةٍ من أعلى كتفه، قائلاً: «راقبيني!»

وبدافعٍ غريزيٍ محضٍ يتخطى أي تفكيرٍ منطقيٍ سليم، اندفعت إيندیا إلى الأمام وانتزعت باقة الورود الصفراء من يد إشبيتها المشدوهة، قائلةً:

- لقد قلت لا!

في هذه اللحظة، قذفت بالباقة وراءه، وراحت تراقب الورود الرائعة التي اختارتها بتأنٍ وسعادة عارمة متجهةً مباشرةً نحو ظهر «إيدان» العريض.

لكن نوعاً من الحدس، أو نظرةً خاطفةً ألقاها بطرف عينه، نبهته. فارتدّ برشاقة نمر وبسط ذراعه الطويلة ليلتقط الباقة قبل أن تقع أرضاً.

ساد صمت لفترةٍ طويلةٍ. واصطدمت عينا «إيدان» الداكنتان الغامضتان بعيني إيندیا الخضراوين البراقتين من فوق رؤوس الحشد، فتحجّرت كحيوانٍ بريٍ صغيرٍ تجمد أمام أضواء سيارةٍ آتيةٍ. لكن «إيدان» ما لبث أن قطع فجأةً هذا الاتصال المتوتر. فألقى نظرةً على الباقة في يده، ليبتسم بعد لحظة ابتسامة من تلك الابتسامات غير المتوقعة التي لا تعبر أبداً عن أي حسٍّ للدعابة.

ثم رفع الورود في تحيةٍ ساخرةٍ، قائلاً:

- حسناً الآن، أعتقد أن هذا يعني أنني سأكون أول من يتزوج من بين هؤلاء

الحاضرين. أليس هذا ما يفترض حدوثه لمن يلتقط باقة العروس؟ لكن عليك أن تعذريني إذا ما فضلت تفويت هذه الفرصة الخاصة، أو أي فرصةٍ أخرى قد تحين. فإن مجرد التفكير في حياة العبودية لامرأةٍ واحدةٍ هو أمرٌ لا أستطيع مواجهته.

لم تستطع إينديا تصديق ما تسمعه... حياة العبودية! كان يتكلم كما لو أنها أوقعته في شركٍ بطريقةٍ ما. لكنه هو من طلب يدها للزواج!

لماذا طلب منها الزواج؟

تناهى إلى سمعها صوته قائلاً: «لكن ربما إن حاولت مرةً أخرى، فسيكون حظك أوفر مع شخصٍ آخر».

قذف بالورود نحوها بازدراء، وتعمد الا تصل إليها. وعندما وقعت الباقة أرضاً، أضاف:

- قلت إنك ترغبين في الزواج برجل ثريٍّ يا عزيزتي. لكني آسف، فلن أكون أنا هذا الرجل، حتى لو كنت أول من يلج من هذا الباب.

فانضح حينها قصده وأنت حزناً لأنها تذكرت كلماتها الغبية التي قالتها يوماً لصديقتها:

- لقد سئمت وتعبت من الفقر. راقبيني فحسب! سأجد لنفسي زوجاً ثرياً، يستطيع أن يجعلني أحيا بمستوى أنوي التعود عليه... ولن أجلس بانتظاره ليأتي إلي. في الواقع، إن الرجل الثري التالي الذي سيلج من هذا الباب، سيجد نفسه فريسة حملةٍ من الإغراء بحيث أنه لن يتمكن من مقاومتي. وأراهنك أني سأضع خاتمه في إصبعي قبل أن يدرك ما الذي صعقه...!

لقد كان ذلك مزاحاً لا غير. حاولت القول إنها كانت تمزح يومذاك، ولكن شيئاً ما منع حنجرتها من التلفظ بالكلمات. لقد كانت تمزح بعض الشيء حين أدلت بتصريحها الطائش في سهرةٍ عند صديقةٍ لها، غير أنها كانت جادة بعض الشيء أيضاً.

لكن حين دخل «إيدان» الغرفة بعد وقتٍ قصير، نسيت في لحظةٍ كل ما جرى قبل ذلك. فتوقف تفكيرها أمام تيارٍ من الأحاسيس التي غمرتها بحيث أنها عجزت عن التفكير في أي شيءٍ آخر.

لكن كيف تمكن «إيدان» من سماع رهانها المجنون؟ فلم يكن في المنزل حينها أم أنه كان؟

- إيدان...

حاولت الكلام، لكن صوتها كان من الضعف بحيث لم يصل إليه. وحين نظرت إلى معالم وجهه الصلبة، علمت أنه ما كان ليسمعها على أي حال. وكان ترددها البسيط شاهداً عليها ودليلاً على ذنبها. فإذا به يقول:

- إذن، أنا آسف.

لقد كان جلياً من النبرة الشريرة أن الأسف كان آخر ما يشعر به.

- عليك أن تتدبري أمرك بما لديك، فليس لدي بعد ما أقدمه لك. لكن لا تيأسي وتستسلمي حبيبتي، فما زال البحر مليئاً بالأسماك.

ولوحت يده القوية السمراء في الهواء في حركةٍ شملت الحشد الذي كان يراقب بعيونٍ دهشة.

لاحظت إينديا ببؤسٍ عائلتها وأصدقاءها. لقد كانت تعلم أن «إيدان» ليس له عائلة على قيد الحياة. وقد زعم أن السرعة التي تم فيها الإعداد للزفاف حالت دون أن يتمكن أصدقاءه من حضوره. وهي الآن تتساءل عما إذا دعا في الواقع أياً منهم. منذ متى كان يخطط للانتقام بمثل هذا الرفض العلني؟

تابع قائلاً: «أنا متأكدٌ أن أحداً ما هنا سيكون عازماً على إسدائك هذه الخدمة، لكن لا تنتظري مني أن أبقى للمشاهدة».

وما إن أنهى كلامه، حتى ارتد على عقبيه وابتعد عنها خارجاً من الكنيسة ومن حياتها دون حتى أن ينظر إلى الوراء.

***

٢ ـ يخطف روحها

حين دخلت المنزل مساءً، بعد يوم طويل استنزف منها كل مشاعرها، كانت الورود أول ما وقع عليه نظر «إيندیا» وحدثتها غريزتها بأنها تحمل المتاعب، وهي التي عانت من المتاعب ما يكفيها

توهجت الورود بلونها الأصفر والذهبي تحت أشعة شمس المساء. إنها حقاً لرائعة ولا يمكن وصفها بغير ذلك، فالنظر إليها كفيل بإدخال البهجة إلى النفوس

لكن هذه الباقة لم تكن ما استوقف «إيندیا»، بل شبهها بباقة ورودٍ أخرى مطابقة لها استقرت على الأرض عند قدميها منذ سنةٍ تماماً.

ـ لا تنتظري مني أن أبقى للمشاهدة.

تردد في رأسها صدى الكلمات الأخيرة التي قالها «إيدان»، فهزت رأسها بحدةٍ في محاولةٍ لإبعادها، لكن دون جدوى. لكأن السنة التي سمعت فيها تلك الكلمات لم تمرّ قط

لن يعود «إيدان». أدركت هذه الحقيقة حين نظرت إلى وجهه ورأت نفوره البارد محفوراً بقسوةٍ في كل خط من خطوطه.

إن «إيدان وولف» رجلٌ فظ شديد الاعتداد بنفسه. يعيش الحياة وفق قواعده الخاصة، متجاهلاً القيود التي تفرضها العادات والأعراف التقليدية. لقد صنع نفسه بنفسه فبدأ من لا شيء وأصبح الآن رئيساً لشركةٍ متعددة الأوجه. وهو رجل معروف بقوته وصلابته الشديدتين، رجل لا يمكنه قط احتمال الأغبياء من الناس غير أنها كانت شبه متأكدة من أنه سيكون معها هي شخصاً مختلفاً تماماً.

لكن، ما هو في الواقع مدى معرفتها به؟ إلى أي حد يمكن لك أن تعرف شخصاً التقيت به قبل ستة أسابيع فقط من يوم زفافك؟ عادت إلى ذاكرتها كلمات «جاين» في الليلة التي أقيمت فيها تلك السهرة المشؤومة.. تلك الليلة عندما أعلنت «إيندیا» بذهولٍ أن رجل أحلامها قد دخل لتوه من الباب، فقالت لها «جاين»:

ـ يا إلهي، إيندي، لا!

وأضافت:

ـ ليس لون وولف نفسه! لا أحد يعبث معه ويحيا بعد ذلك ليروي القصة.

فسألتها «إيندیا» مشتتة الفكر: «لماذا؟» وكانت تلتهم بعينيها الرجل الذي أثار اهتمامها بقامته الطويلة السمراء، القوية البنية، الساخرة الملامح. ثم عادت لتسأل مرةً أخرى:

ـ أهو محطم قلوب؟.

ارتجفت صديقتها مجيبة: «بل هو بالأحرى محطِّم نفوس».

وتابعت قائلة: «الأعمال والنساء سواء لديه. يأخذ ما يرغب فيه ويبعد الباقي دون أن يخفق قلبه خفقةً واحدة. وفي الواقع، تقول الإشاعات إنه لا يمتلكُ قلباً فكيف بالحديث عن المشاعر.. لذا أحذرك».

لكن «إيندیا» علمت في قرارة نفسها أنها لم تأبه بمن يكون أو ماذا يكون، غنياً أم فقيراً، ناجحاً أم فاشلاً. ما آمنت قط من قبل بالحب من النظرة الأولى. أما الآن، فقد علمت أنها فقدت اتزانها كلياً وحل محله الاضطراب والحيرة. واهتزت أحاسيسها بشكلٍ لم تعهده من قبل في حياتها.

اتجهت إلى حيث وقف «إيدان» المثير بقميصه وبنطاله الأسودين، وقد علتهما سترة فضفاضة من الكتان الأسود. وقدمت نفسها له بوقاحة قائلة:

ـ قد لا تعرف ذلك.

وتأرجح صوتها في مزيج من الإثارة وما يشبه الجنون. وأضافت: «لكني الفتاة التي انتظرتها طوال حياتك».

تشدق «إيدان» قائلاً: «أأنت هي حقاً؟»

رفع حاجبه الداكن بتأمل مخادع متروٍ. وأنعمت عيناه البنيتان الداكنتان النظر في كل جزء منها، ابتداءً برأسها مروراً بثوبها حتى أخمص قدميها. وأضاف قائلاً: «أتعلمين، قد تكونين على حق؟».

ثم قدم لها كوباً من العصير، والباقي كان من الماضي. الماضي الذي استحال طعمه مريراً في النهاية وأوصلها إلى المهزلة التي جسدها يوم زفافها. فقط لو علمت...

غير أن الحقيقة هي أنها لم تعرف قط «إيدان وولف» كما ينبغي.

ولكن الحب كما يقولون أعمى.. وهذا الحب نفسه تحوّل إلى كره بالغ الحدة أشعل النيران في نفسها.

قدم لها هذا الحقد السند والمؤازرة في الأيام السوداء التي تلت، فأجبرها على النهوض من الفراش في الصباح حين كان جلّ ما تبغيه أن تحجب رأسها تحت الغطاء وتختبيء من الأعين. كما منحها القوة والعزم لتجاهل النظرات المتأملة والتعليقات الهامسة عند ظهورها في القرية. لو أنها استسلمت للألم، لكان «إيدان» هو الرابح، ولنجح في خطته التي أراد بها إذلالها. لكنها تفضل الموت على أن تدع ذلك يحصل.

أرغمت «إيندبا» نفسها على متابعة الحياة بشكل طبيعي. ونجحت المحاولة، وبدت قادرة على إقناع الناس بعدم اكترائها.

سألت شقيقها: متى وصلت الورود هذه؟

كشفت نبرتها المتقطعة عن مشاعر أعمق وأبلغ من حركة يدها اللامبالية وهي تشير إلى الورود. فأجاب شقيقها:

ـ لقد سلمها «كوغان» عند الثانية من بعد الظهر.

لم يدرك «غاري» مدى الجهد الكبير الذي بذلته لفرض السيطرة على مشاعرها والتحكم بها. فهو، كمعظم المراهقين، كان يعيش في عالمه الخاص.

سألته مجدداً:

ـ هل قالوا من أرسلها؟

لماذا في الساعة الثانية تحديداً؟ إلا إن كان مرسلها شخصاً يعرف ما يعنيه هذا

الوقت. وراحت الشكوك المزعجة تحرق كل أعصابها.

ـ لست أدري. لكن هناك بطاقة في مكان ما إن أردت إلقاء نظرة عليها.

لم ترد رؤية ما يؤكد شكوكها ومخاوفها، غير أنها وجدت نفسها مضطرة لفعل ذلك.

نظر «غاري» بفضول من فوق كتفها متسائلاً:

ـ من هو (أ)؟ معجب مجهول؟

فأجابته: «لا شيء من هذا القبيل».

أكان حقاً لا يعلم؟ وهل من الممكن أنه لم يستطع حتى التخمين؟ أم أن هذا الحرف الوحيد القوي لا يشير إلا في ذهنها فقط إلى اسم واحد؟

تملكتها رغبة عارمة وملحة في تمزيق البطاقة إلى قطع صغيرة، ثم رميها بعيداً مع باقة الورود. غير أنها تراجعت لعلمها أن ذلك ما يريده «إيدان».

علمت بالطبع في قرارة نفسها أن «إيدان» هو من أرسل الورود. فالاختيار الساخر المتعمّد للورود التي تتطابق مع تلك التي شكلت باقة زفافها، وإرسالها في الموعد الذي ألغيت فيه مراسم الزفاف في السنة الماضية، لم يدع مجالاً للشك في هوية المرسل.

لكن كيف بإمكانه بعد كل ذلك الوقت أن يكون بهذه القسوة وهذا الحقد؟ كيف بإمكانه أن يكرهها؟ كل ذلك بسبب تصريح ساذج ومتهور!

ولأن إبقاء هذه الورود في المنزل يفوق بكثير قدرة احتمالها، قالت لشقيقها بصلابة:

ـ سآخذ هذه الورود إلى المستشفى الليلة، حيث ستلقى ترحيباً من أحد ما هناك.

نظر «غاري» بارتباك وذهول قائلاً:

ـ لكن... لقد أرسلت لك أنت، مع الأمنيات بعيد...

قاطعته مجيبةً: «لم ترسل إليّ مع أي أمنيات، «غاري». والآن، لديّ ما يكفي من المشاكل لأشغل نفسي بيوم ميلادي».

مررت يدها بسأم في شعرها، رافعةً الخصل السوداء عن وجهها الشاحب

المتعب من التوتر. وأضافت:

ـ ستبقى والدتي في المستشفى مرة أخرى. لذلك، سنكون وحدنا أنا وأنت على العشاء الليلة. وأخشى أننا سنأكل طعاماً سريع التحضير. فليس لديّ متسع من الوقت لفعل أي شيء قبل أن يأتي «جيم» لاصطحابي إلى المستشفى حيث أبي.

كان صوت شقيقها حاداً وقلقاً وهو يسألها:

ـ هل من جديد؟ هل من أي إشارة تدل على استيقاظ والدي من الغيبوبة؟

قالت له:

ـ أعتقد أن لا شيء جديد، حبيبي.

اقتربت منه «إيندیا»، وجلست إلى جانبه حين رأت وجهه المضطرب. فوضعت يدها برفقٍ على ذراعه، لعلمها أن هذه الحركة البسيطة هي كل ما تتقبله رجولته الشابة والحساسة في الوقت الحاضر.

وتلاشى من ذهنها كل ما يتعلق بباقة الورود. وانحصرت أفكارها في المشهد الذي رأته للتو في المستشفى، من أجواء قسم العناية الفائقة إلى الآلات والأنابيب الموصولة بجسد والدها الساكن. ثمّ قالت له في محاولةٍ لطمأنته:

ـ لكنه على الأقل يتنفس وحده، وهذا أمرٌ هامّ. كلّ ما يمكننا فعله هو الانتظار.

وبدا صوت «غاري» أجش من الحزن حين قال: «لكنهم قالوا ذلك منذ أيام!»

أجابته: «أعلم ذلك، حبّي».

كانت عينا «إيندیا» غائمتين مكفهرتين. فهي، كشقيقها، وجدت من المستحيل نوعاً ما، تقبّل واقع أبيها الذي انهار كلياً من المرض الذي ألم به منذ أسبوع مضى دون سابق إنذار. مع أن والدها لم يبلغ الخمسين بعد.

تابعت قائلة:

ـ لكن ما من شيء آخر نقوم به، فهو بين أيدٍ أمينة. وكل ما نستطيع فعله هو الانتظار... والدعاء.

الانتظار والدعاء... بقي صدى هذه الكلمات يتردد في رأس «إيندیا» بعد

مرور بضع ساعات. وكانت تشعر بإرهاق جسدي وفكري عندما عادت من المستشفى إلى المنزل:

ـ شكراً «جيم» لاصطحابي إلى المنزل.

تنهدت «إيندیا» وهي تلتفت نحو الرجل الجالس وراء المقود وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة متعبة، وأضافت:

ـ لا أعتقد أني كنت بحالٍ تسمح لي بالقيادة بنفسي، لذا فأنا ممتنة لك فعلاً.

ـ لا مشكلة.

أجابها «جايمس هاوثورن» مبتسماً، وتابع قائلاً:

ـ تعلمين أني على استعداد دائم للمساعدة.

نظرت «إيندیا» نحو المنزل فرأت النوافذ معتمةً، باستثناء ضوءٍ واحد أنار الردهة. فأردفت قائلة: «يبدو أن «غاري» قد أوى إلى الفراش، لذا أرجو أن تعذرني لعدم دعوتك لشرب القهوة».

أجابها «جيم» وهي تفتح باب السيارة:

ـ لا داعي للاعتذار. لم أكن سأقبل دعوتك على أي حال، فأنت تبدين بحاجة للتوجه إلى السرير مباشرة.

تنهدت «إيندیا» مجيبةً: «آه، أجل! أشعر أني أستطيع النوم لأسبوع. يا له من عيد ميلاد، أليس كذلك؟»

قال لها «جايمس» مطمئناً: «سنعوّض ذلك حين تستقيم الأمور. الآن انزلي وخذي قسطاً من الراحة. وسأراك غداً».

كانت «إيندیا» تهم بالخروج من السيارة، حين دفعها شيء ما للالتفات إلى الوراء لتطبع على وجنة «جيم» اليسرى قبلة عفويّة، ثم قالت له:

ـ كنت لطيفاً جداً، لا أعرف كيف أشكرك.

أجابها مبتسماً:

ـ لا مشكلة. تعلمين أني أقوم بأي شيء من أجلك. ليس عليك إلا أن تطلبي.

بدا واضحاً من ملامح وجهه أنه أراد أكثر من مجرد قبلة بريئة. وحين أدركت ذلك، سرى التوتر في أعصابها بحدّة. فخرجت مسرعةً من السيارة، وقالت:

ـ سأراك غداً إذن. كن حذراً في قيادتك، أرجوك.

راقبت «إيندیا» السيارة وهي تبتعد على الطريق قبل أن تختفي في ظلمة الليل. وفكرت فيه بحزن... لم يكن ذنب «جيم» أنها لم تتمكن من الشعور بشيء نحوه، بل إنها تشكك في قدرتها على الشعور بشيء نحو أي رجل بعد الآن. فقد ساهم «إيدان وولف» في شفائها من هذه الحماقة.

ـ آه، ما ألطف هذا!

انتفضت «إيندیا» كهرة مذعورة حين علا صوتٌ فجأةً، آتياً من الظلال التي يعكسها المنزل. فصاحت بحدة من الصدمة: «ماذا...؟».

ردّدت النبرة الساخرة كلماتها مشددةً عليها على نحوٍ مقلق:

ـ كنت لطيفاً جداً، ولا أعرف كيف أشكرك.

بعد الخوف الذي سيطر عليها في البدء، شعرت «إيندیا» بالدم يتجمد في عروقها من الرعب بسبب هذا الصوت المألوف والمخيف بنبرته القوية:

ـ أنا متأكد من أنك ستجدين طريقة تشكرينه بها، أليس كذلك أيتها الأميرة؟

ذهب استعمال هذا اللقب المألوف المزعج بكل آمالها بالخلاص. إن شخصاً واحداً قد اخترع هذا الاسم لها، كما أنّ شخصاً واحداً قد استعمله، بدافع من العاطفة في البدء. ولم تتمكن إلا بعد مرور فترةٍ من الزمن، من فهم النبرة المضمرة الأخرى فيه وإدراك مغزاها. وعلمت أن ما من أمل الآن في أن تكون مخطئة. فاستدارت ببطء واستسلام حزين، وانطلق لسانها أخيراً بشكل سمح لها بالكلام، فقالت: «مرحباً، إيدان».

في الواقع، كان «إيدان» يشغل فكرها إلى حدّ بعيد، بحيث أنها ما كانت لتتفاجأ لو أنه ظهر اليوم بشكل خرافي. لكنه كان «إيدان وولف» بالتأكيد، بشحمه ولحمه، وبقامته الصلبة المكسوة بست أقدامٍ من العضلات القوية البنية. لم يكن فيه شيء خرافي أبداً.

كانت قدماه تقفان بثباتٍ أمام الباب الخشبي الرئيسي، وقد استراحت يداه على وركه النحيل ومال رأسه إلى الجانب... بشكلٍ عام، كانت وقفته وقفة تحد ساخر.. وتلاقت عيناه الشبيهتان ببركتين سوداوين بعيني «إيندیا» الخضراوين

المشدوهتين، في استفزازٍ واضح.

ـ ماذا تفعل هنا؟

خطا «إيدان» متقدماً نحو الضوء المنبعث من المصباح في الباحة الخارجية. وعلت وجهه ابتسامة كريهة ارتسمت بقسوة على شفتيه، وهذا ما جعل الدم يتجمد في عروقها. وقال:

ـ أتصدقين أني أتيت لأتمنى لك عيداً سعيداً؟

ـ لا. أعلم أن ذلك هو آخر ما قد تفكر فيه.

قاطعها «إيدان» بلطفٍ مخادع: «حسناً الآن، قد تكونين مخطئة».

ثم قال وقد اتسعت ابتسامته: «أنا حقاً أتمنى لك السعادة في... ماذا؟ عيدك الرابع والعشرين؟ وسنة رائعة».

خطر «لايندیا» أنه يكاد يبدو صادقاً. لكنها ما لبثت أن تدخلت بشدة لقطع حبل أفكارها الضعيفة. فإن مجرد التفكير في ذلك هو عمل جنوني، جنوني وخطيراً جداً. فاستدركت قائلة:

ـ لا يمكن أن تكون أسوأ من السنة الماضية.

ندمت على كلماتها ما إن تلفظت بها، خوفاً من أن تكشف الكثير. لم ترد لهذا الرجل أن يعلم بكل تلك الليالي الطويلة الموحشة التي قضتها مستيقظة في صراع مع ألم الخيبة المبرّح.

حاولت مباشرة تغطية نفسها قائلة:

ـ لكن في الواقع، علي أن أشكرك على ما فعلت. فقد أنقذتني من ارتكاب أسوأ خطأ في حياتي.

ابتسمت راضيةً حين رأت رأسه يتراجع إلى الوراء قليلاً، مما يدل على أنها أصابت الهدف بهجومها. وأضافت:

ـ لكني متأكدة من أنك لم تأت إلى هنا للتحدث عن الماضي.

ثم أضفت على كلماتها لوناً من القسوة حين تابعت قائلة:

ـ لذا، أطلعني على السبب الحقيقي لتجسدك المفاجيء أمامي.

فردد «إيدان» الكلمة بلهوٍ حائرٍ: «تجسّد. تجعلينني أبدو كمخلوق فضائي،

أو كشبح».

إنه شبح بالفعل. شبح الأيام السعيدة، الذي يعيدها بالذكرى إلى ما شعرت به في أحد الأوقات. وأجفلت «إيندیا» وهذا ما دفعها للتكلّم بقسوة ودون تروّ:

ـ قد أقول بالأحرى ذئباً أو مصّاص دماء!

ـ الآن، أنت تبدين كثيرة الأوهام.

ـ هل أنا كذلك؟ أحقاً أنا كذلك؟

لكم تمنت أن تتمكن من تخفيض نبرة صوتها قليلاً. فقد كان صوتها مرتفعاً جداً وحاداً وفاضحاً بشدة. وما أغاظها أكثر من ذلك أنها تذكرت الوعود التي طالما قطعتها على نفسها بأن تكون هادئة وباردة حين تلتقي هذا الرجل مرة أخرى. فهي لن تحتمل أبداً أن يعرف مدى الألم الفظيع الذي سببه لها.

ـ حسناً، دعني أقول لك شيئاً سيد «وولف». لست برأيي سوى مصّاص دماء! مصّاص دماء عاطفيّ، ممن ينقضون على مشاعر الناس ويفترسونها ثم يمتصونها حتى آخر قطرة، ويرمونها جانباً دون تردد حين يملون منها.

هزأ «إيدان» بصوته الناعم من هيجانها وانفعالها.

ـ آه، لا تبالغي!

وأضاف:

ـ أنت بالتأكيد لا تدعين أني حطمت قلبك؟ ففي النهاية، أردت مالي ولم تريديني أنا.

كانت نبرته قد احتدت بشكل ملحوظ في الكلمات الأخيرة. ثم اتجه نحوها بخطوتين رشيقتين، ودنا منها جداً للمرة الأولى.

استعانت «إيندیا» بكل ما تملكه من قدرة للسيطرة على النفس لئلا تتراجع عنه مذعورة. وكانت قد نسيت كم هو طويل القامة وعريض الكتفين.

لاحظت «إيندیا» أنها لم تر «إيدان» من قبل مرتدياً ثياباً غير رسمية. ففي الفترة التي كانوا يخرجون فيها سوياً، التزم «إيدان» بشكل صارم بالبذلات الرسمية التي يرتديها في العمل كما في أوقات الفراغ. لذا، تملكها قلقٌ مؤلم حين لاحظت صدره الذي التصق به القميص القطني الناعم، وسرواله القطني الأزرق

٦ ـ فخ من حرير

ـ غاري! أين أنت؟

اللعنة على الفتى!

استشاطت «إيندیا» غضباً. أين اختفى إلى هذا الوقت؟ بدت دهشة حين بحثت عنه في غرفة نومه، ثم في غرفة الجلوس. وكادت تبحث عنه في الحديقة. والآن لفت انتباهها صوت ضحكة آتية من الجزء الخلفي من المنزل. فاستدارت على الفور واتجهت نحو باب المطبخ.

ـ إذن، هنا كنت مختبئاً! لقد بحثت عنك في كل مكان! حقاً غاري...

تهالك صوتها في حنجرتها، وتوقفت قدماها فجأة وهي تلتفت إلى زاوية المنزل. وحين رأت ما رأته أمامها في نظرة خاطفة قلقة، أدركت ما كان عليها معرفته منذ البدء. غاري لم يكن وحده.

كان «إيدان» مع شقيقها، وقد أخذا استراحة قصيرة من الإشراف على أعمال التجديد والإصلاح التي بدأت في المنزل. قاما بوضع مرمى مؤقتاً على المرجة الخضراء الطويلة في فناء المنزل الخلفي. ومن الواضح أنهما كانا يلعبان بكرة القدم. كان جبيناهما وقميصاهما مبللين بالعرق نتيجة الجهد في حرارة شمس بعد الظهر. وكان بنطال «إيدان» الجينز وسروال شقيقها القصير ملطخين بالأوساخ والعشب.

ما إن ظهرت «إيندیا» حتى اندفع «غاري» بقوة ليمسك بخصمه، مما جعل «إيدان» يطير في الهواء بعد أن زلت قدمه. كما أن «غاري» فقد توازنه أيضاً، فوقعا أرضاً ضاحكين أمام «إيندیا». سقطت الكرة التي اندفعت بقوة في إيندیا»

شركة «جنكينز وكوران»، إنهما...

قاطعها «إيدان» متابعاً: «محاميا والدك. أعرف جيداً من هما».

ـ لكن كيف؟

أجابها بغموض:

ـ كان بيننا عمل. هذا يذكرني بأن أسألك، أين هو أبوك العزيز؟

بعث الانفعال في صوته القلق إلى نفسها.. واسترت خلف كلماته نبرة مهددة. عند سماعه، شعرت «إيندیا» بارتعاشة تنسل إلى عمودها الفقريّ، مما نبّه غريزتها الدفاعية. فسألته بحذر:

ـ لماذا تريد أن تعرف؟

ـ لقد أتيت لرؤية أبيك. لديّ بعض الأعمال الهامة لأناقشها معه.

كانت «إيندیا» قد شعرت بالخوف والقلق قبل ذلك. لكن هذه الملاحظة المبهمة زادت خوفها عشرة أضعاف. كان «إيدان» ووالدها قبل يوم زقافها على وشك الاقتتال. وهي تشك الآن في أن يكون الوقت قد ساهم في تخفيف حدة الأزمة. قالت:

ـ لا أعتقد أنه يرغب في التعاطي معك!

ـ آه، سيراني حبيبتي. أعدك بأنه سيرغب كثيراً بالتحدث معي. وإن كان حكيماً وعاقلاً سيرتّب لنا اجتماعاً عما قريب. لذا، فمتى سيعود؟

ـ ماذا يفترض أن يعني هذا؟

أجابها «إيدان» لا مبالياً: «أريد رؤية والدك، وسيكون من الأفضل له أن أراه قريباً. لذا، متى تتوقعين عودته إلى المنزل؟»

ـ لست أدري.

كانت على الأقل صادقةً في ما تقول. إن عاد والدها من المستشفى في يوم من الأيام، سيمر وقت طويل قبل أن تتحسن حاله ليستطيع التحدث مع أي كان، هذا دون ذكر «لون وولف» المفترس. لكن ما هي الأعمال التي قد تجمع رجلين متباينين بهذا الشكل؟

تدبرت أمرها لتقول: «أستطيع إن رغبت أن أنقل له رسالة».

انهارت محاولتها هذه لإظهار الهدوء والثقة بالنفس حين أدركت فجأة أن «إيدان» كان يقف حائلاً بينها وبين الباب. وقالت في نفسها إنها لو أرادت الدخول، فعليها المرور عبره وأربكتها الفكرة، وتنبهت إلى أن غرفة «غاري» موجودة في الجزء الخلفي من المنزل، بعيداً عن مرمى السمع. وقالت:

ـ ليتك تخبرني ما الذي تود قوله.

فكر «إيدان» مطوّلاً قبل أن يجيبها وهو يهز رأسه بتصميم وعناد، قائلاً:

ـ لا. إنه أمرٌ بيننا نحن الاثنين. أخبريه أني جئت أبحث عنه.

سألته «إيندیا»: «أهذا كل ما في الأمر؟»

تلقت نظرة أخرى من تلك النظرات الساخرة التي وزادت من حدة مشاعرها. فقال:

ـ أكنت تبحثين عن المزيد؟

ـ ليس في حياتك!

وتملكها الاضطراب والقلق حين تنبهت لمدى قربه منها، فقد أصبح فجأة على بعد بضعة إنشات منها لا غير. وقال: «هذا مؤسف».

كانت همسته منخفضة ودافئة فجذبت انتباهها رغم إرادتها. جذبتها وأوقفتها كما لو أنها تم تحذيرها. وأضاف:

ـ لأني فكرت أني لا أستطيع تركك دون معانقتك إكراماً للمودة القديمة.

دمدمت «إيندیا»: إكراماً...!

تملكها شعور بالذعر أمسك بها من حنجرتها وخنق فيها الكلمات حين دنا رأسه أكثر فأكثر، وانخفض ليحجب عنها ضوء القمر.

كان قريباً إلى حد أنها تمكنت من سماع صوت أنفاسه والتقاط عبير عطرٍ خاص. فترنح قلبها في إيقاعٍ عنيفٍ متقطع، وهذا ما جعل الدم يصعد إلى أذنيها. ثم قالت بصوتٍ مرتفع وحادّ:

ـ إياك أن تجرؤ!

وتوقف رأسه فجأة... كرّرت لكن بنجاحٍ أقل هذه المرة:

ـ إياك أن تجرؤ...

لكن الارتعاشة التي عجزت عن قمعها كلياً، جرّدت كلماتها من القوة التي سعت إليها

ارتسمت ابتسامة شريرة على شفتيه فكشفت عن أسنانٍ ناصعة البياض. تشدق بلطفٍ قائلاً:

- آه، أنا أجرؤ. لكن السؤال هو هل تجرؤين أنت؟ ففي الواقع، لن أكتفي بقبلة خاطفة على الوجنة فقط، وكلمة شكر لاهثة كتلك التي أعطيتها لجيم البالغ اللطف

- لكنك...

همس «إيدان» وهي تحاول البحث عن كلماتٍ ترميه بها: «لكني ماذا؟»

تكمن المشكلة في قرب هذا الرأس الداكن منها، فقربه هذا ذكرها بقوة الأحاسيس التي كانت تغمرها وهي تمرر يدها في شعره الحريريّ الداكن...

كرر «إيدان» سؤاله بنغمةٍ مختلفةٍ كلياً، نغمةٍ دافئة إلى حد الجنون، نغمة سحب بها روحها من جسدها:

- لقد رفضتك، نبذتك... أهذا ما في الأمر؟

لم تجد «إينديا» أي إجابة لأن لسانها تجمد في فمها. فتابع قائلاً:

- آه، لكنك نسيت أمراً واحداً، حبيبتي «إينديا». ربما هربت من فكرة تقييد نفسي برباط الزوجية، لكني لا أرفض أبداً دعوة من فتاة رائعة مثلك. فلطالما عجزت عن مقاومتك. وبعد اثني عشر شهراً، ما زلت معجباً بكِ أكثر من أي وقت مضى.

انفجرت «إينديا» وقد علا رأسها بحدةٍ:

- دعوة! أنا لا أدعو لشيء! وصدقني، ليس لدي إطلاقاً ما أقدّمه لك بعد اليوم! وإن ظننت العكس فاعلم أنك أخطأت في قراءة الإشارات.

أجاب، وكانت نبرته تشير إلى تشكيكه في ذلك:

- ربما. لكن، «إينديا»، حبيبتي...

- كما أني لست حبيبتك، أو أي شيء آخر! كيف يحدث أن تتمكن حتى من التوهم أني قد أريد أي صلةٍ بك بعد الأسلوب الذي عاملتني به.

سحبت نفساً عميقاً متمسكة بما أملت إقناعه به للمرّة الأخيرة:

- إفهم ذلك جيداً أيها العنيد، أنا لست متوفرة لك. فكما رأيت، أنا أخرج مع جيم الآن.

يا لجيم العزيز! فلن يمانع في استعمال اسمه هكذا دون جدوى. وهي تستطيع على الأقلّ الاعتماد عليه لمساندتها إذا ما اضطرت لذلك. وتابعت قائلة:

- هو الرجل الوحيد في حياتي، والوحيد الذي أريد.

ثم خطر لها وقد تقطعت أنفاسها، أنه إن ناقشها في ذلك، أو ألح في سؤالها أو طلب برهاناً على ما تقول، فلن تعرف ماذا تفعل.

غير أن ردة فعل «إيدان» غير المتوقعة دمرت ما لملمته من رباطة جأشها.

قال غير آبهٍ: «حسناً».

ثم هز كتفيه العريضتين في حركةٍ تعكس عدم اكتراثه على الإطلاق. وأضاف:

- إذا كان هذا ما تريدينه.

كانت لا مبالاته الباعث الحقيقي على الألم والأسى. ووجدت «إينديا» نفسها وقد تجمدت، عاجزةً عن فعل أي شيء آخر سوى النظر إليه وهو يستدير ويبتعد متوجهاً إلى السيارة المتوقفة بجانب المنزل، وقد اختفت تقريباً عن الأنظار في عتمة الظلال.

لو أنه أكن لها أي نوعٍ من المشاعر في يوم من الأيام، مهما تكن ضئيلة لأظهر بالتأكيد بعضاً من ردة فعلٍ. ولعكست ملامحُ وجهه حتماً ذرةً من خيبة الأمل أو الغضب، أو على الأقل نوعاً من الغيرة.

غير أن إدراكها بعدم اكتراث «إيدان» لم يمنع قلبها من الانتفاض بشدةٍ موجعة في صدرها، لكن «إيدان» توقف فجأة واستدار نحوها قائلاً:

- أبلغي أبيك أني كنت هنا.

استعاد صوته تلك النبرة الشريرة المنذرة بالسوء، النبرة التي أقلقتها إلى حدٍ بعيد قبل ذلك. وأضاف:

- وأن لدينا أموراً هامةً نناقشها معاً.

حاولت «إيندیا» الإجابة: «ماذا...؟» غير أن محاولتها الواهنة باءت بالفشل، حين اصطدمت عيناها بوجهه القاسي. فقال:

- فقط قولي له إني عائد.. فإن كان حكيماً، سيبقى هنا ليراني.

رغم حرارة المساء، سرت بفعل كلماته رعشةٌ باردة على عمودها الفقري. لا يمكن أن تكون مخطئة في قراءة التهديد الكامن في كلماته.

- لكن، ماذا...؟

لكن «إيدان» اختفى. فاجتاح «إيندیا» فجأةً شعور مخيف بالوحدة وبالرعب لعدم حصولها على تفسير منطقي لما يجري. واختفت السيارة الداكنة الأنيقة أسفل الطريق وانعطفت لتغيب عن الأنظار.

***

٣ ـ الشوق الدفين

«عائد».

مضى يومان.. وفي هذين اليومين ظلت كلمات «إيدان» تتردد في رأس «إيندیا». وباتت نبرته المضمرة المزعجة تنذر كل مرة بالسوء أكثر فأكثر.

لم يكن هناك من أحد يشاركها قلقها. فوالدتها تعاني ما يكفيها من التوتر، حيث تمضي كل الأيام وأحياناً بعض الليالي في المستشفى. وكانت من القلق والتوتر بحيث يتعذر عليها تناول الطعام كما ينبغي. كما أن «غاري» لا يزال فتياً جداً، ويعاني كذلك من القلق على والده.

«أنا عائد».

لم تشك في أنه يعني ما يقول. فقد وجدت حتى الآن ثلاث رسائل من «إيدان» على المجيب الصوتي الخاص بوالدها. وكانت الاثنتان الأخيرتان أقل تهذيباً من الأولى. والبارحة أيضاً، تمكنت من الهرب في آخر لحظة حين جاء يقف على الباب.

استجابت «إيندیا» تلقائياً لنداء جرس الباب. لكنها لحسن الحظ تمهلت لحظةً لتلقي نظرةً إلى الخارج من نافذة في الطابق العلوي قبل أن تهبط إلى الردهة. واقشعرّ وبر عنقها في تأهبٍ وحذر غريزي حين رأت سيارة الجاغوار الرصاصية واقفةً في الممرّ. فتجمدت في موقعها لا تحرك ساكناً.

ثم بدا لها بعد لحظة رأس «إيدان» الداكن وكتفيه القويتين، ولكن إيدان تحرك باستياءٍ ونفاد صبر حين لم يلق رداً. فدفعتها غريزتها إلى الارتداد إلى الوراء والتصقت بالحائط مختبأةً بستارة مخملية سميكة، وذلك قبل ثوانٍ فقط من نظره إلى

www.elromancia.com

أعلى بعينيه الداكنتين راصداً النوافذ العليا بحدةٍ ارتجف منها جسد «إينديا».

بدا على علم بوجودها، كأنه أحس بحضورها كما يشتم الذئب فريسته. فالتصقت «إينديا» بالحائط مذعورةً، ولبثت في مكانها حتى أخبرها هدير السيارة برحيله. ومع ذلك، تطلب الأمر منها بضع دقائق قبل أن تجرؤ على الحراك.

لكن الممر كان خالياً اليوم على الأقل. لاحظت «إينديا» ذلك بامتنانٍ وهي تصل إلى البيت بعد أن أحضرت بعض الخضار التي وضعتها على مقعد السيارة الخلفي. لم تدلّ أيّ إشارة على وجود أحدٍ ما، ولم تر أيّ سيارة غريبة متوقفة في الباحة الأمامية. فاطمأنّ قلبها ودندنت بارتياحٍ وهي تفتح الصندوق لتحمل كيسيّ الخضار الثقيلين.

ـ مهلاً، دعيني أساعدك!

ـ آه، أنا...

كاد الكيس الذي حملته ينزلق من قبضتها، وتجنبت ارتطام رأسها بباب السيارة الخلفي المفتوح في آخر لحظة.

هدأها «إيدان» قائلاً: «انتبهي». بدا في صوته وملامحه اهتمام مزعوم لم تصدقه للحظة. وأضاف: «دعيني آخذ هذا».

ـ أستطيع تدبر الأمر جيداً!

تملكت أفكارها الصدمة، مما زاد في حدة صوتها.

قالت: «من أين نبعت بحق الجحيم؟»

أجابها «إيدان»: «من ويستبوري». وكان يدرك جيداً أنها لم تعن ذلك على الإطلاق.

وأضاف: «كنت مقيماً هناك لبضعة أيام».

ـ لكن سيارتك...؟

ـ آه! تركتها في أسفل المنحدر، وصعدت مشياً على الأقدام.

ـ لم أرها.

فات الأوان، وشعرت بأنها فضحت نفسها. فسيعلم «إيدان» الآن أنها كانت تبحث عن إشاراتٍ تدل على وجوده، خوفاً من أن يكون في الجوار.

ـ لا أظن أنك فعلت.

وارتسمت ابتسامته ببطء على شفتيه، ابتسامة نابضة بسخرية كسولة. وتلألأت عيناه ببريقٍ لا شرير وهو يتابع قائلاً:

ـ لكني بالطبع لم أتركها ظاهرةً للعيان، فالحذر الشديد ضروريٌ في هذه الأيام، وحولنا هذا العدد الكبير من اللصوص ومحبي قيادة السيارات المسروقة.

عرف «إيدان» حقّ المعرفة أنها لو رأت سيارته لاستدارت مبتعدةً حتى تخلو الطريق. فقال مؤكداً ظنونها بدقة قاتلةٍ فغرت فاه «إينديا» من الصدمة:

ـ ولم أرد تحذيرك أو تزويدك بالسلاح مسبقاً كما حصل من قبل حين قرعت الباب في ذلك اليوم.

ـ لقد علمت؟

ـ بالطبع علمت. أنت تنسين يا عزيزتي «إينديا» أني أعرف هذا المنزل منذ زمنٍ بعيد، وأنا أعلم جيداً أيّ الغرف هي غرفة نومك.

تكلم «إيدان» بنبرةٍ منخفضة مثيرة، فعلا وجه «إينديا» الاحمرار.

ـ والآن، فلندخل هذه الأغراض.

استغل «إيدان» الصدمة التي أرخت قبضتها عن الكيس، فأخذه منها قبل أن تتمكن من الاعتراض. ثم رفع الكيس الآخر من داخل الصندوق دون عناءٍ، مما أجبرها على الاعتراف سراً، وعلى مضضٍ باعجابها به. وكانت تعلم جيداً كم أن هذا الكيس ثقيل الوزن.

لكنها بالتأكيد تعرف جيداً القوة التي تتمتع بها هاتان الذراعان المفتولتا العضلات.

ألهبت أشعة الشمس الجلد الضارب قليلاً إلى السمرة، فجف حلقها حين عادت ذاكرتها إلى الأيام التي أحست فيها بتينك الذراعين تشدانها إليه بشغف.

ـ إينديا؟

سرى الاحمرار سريعاً على وجهها حين سمعت صوته المنخفض يناديها. واتسعت ابتسامته الشريرة وتأجج بريق عينيه مرسلاً ومضات ضوء شيطانية.

ـ إن لم ندخل هذا الطعام إلى المنزل، فستتلف بعض الأغراض المجلدة في هذه

الحرارة. وأريد . . .

- إنّ والدي ليس في المنزل!

كان هذا كل ما استطاعت قوله. فكرة أن تطأ قدم «إيدان» أرض منزلها مرة أخرى، بعثت في ظهرها رجفة اشمئزازٍ وشعرت بالدم وقد تلاشى من وجهها.

أجابها «إيدان» ببساطة: «آه! أعرف ذلك. لهذا السبب بقيت منتظراً. لكن عليّ الاعتراف بأنني فوجئت حين ظهرت أنت. فقد توقعت أن تكوني في العمل طوال اليوم».

- ليس لدي عمل.

كان صوت «إينديا» مشدوداً. فحين التقته أول مرة، كانت تعمل سكرتيرة لرجل أعمال محليّ. وهو عمل فرحت جداً بالتخلي عنه ما إن تمت خطوبتها. ولم تتمكن في السنة التي تلت يوم زفافها سوى من الحصول على عمل مؤقت. ومؤخراً، تعذّر عليها العثور حتى على هذا المورد غير الثابت، في الوقت الذي كانت في أمسّ الحاجة إليه.

- بالتأكيد لا

عكست نبرة صوته نوعاً من الحدة، وتابع: «إذن، فأنت حرة طوال النهار».

- أجل، لكن أنت . . .

قاطعها «إيدان» مستبقاً محاولتها التالية لإقناعه بالرحيل:

- لدي وقت العالم كله. أنا في عطلة.

أجابت «إينديا» بحدّة:

- لم أكن أعرف أنك تأخذ العطل. أعني أنك كنت دائماً مدمناً على العمل حين كنا. . .

تابع «إيدان» بلطفٍ حين أدرك أن ما أرادت قوله منع لسانها من النطق:

- حين كنا معاً؟ حسناً، ستجدين أن بعض الأمور قد تغيرت منذ ذلك الحين. والآن، هل ستفتحين هذا الباب أم لا؟

تمنت «إينديا» من كل قلبها ألاّ تفعل. غير أن وقفة «إيدان» المصممة، ونظرة عينيه الفظة العنيدة جعلتها تدرك بمرارةٍ ضرورة الانصياع لطلبه.

قبلت الهزيمة وقد ظهرت معالم الاستسلام عليها. ففتحت الباب.

- وبالمناسبة، لم آتِ فقط لرؤية والدك.

أجابته «إينديا» بفظاظة: «حسناً، لا تقل إنك أتيت لإعادة إحياء صداقتنا».

«صداقة؟» وارتفع حاجبه الداكن في تساؤل صريح مشكك واستترت خلف صوته نبرة عجزت عن تفسيرها. وقال:

- ألا تعتقدين أن ذلك يقلل من شأن ما كان بيننا؟

- ما كان بيننا هو كذبة منذ البداية وحتى النهاية. وقد انتهى الآن، إلى الأبد. مات وتم دفنه.

- هل هذه هي الحقيقة؟

- إنها الحقيقة الوحيدة التي أعرفها!

الحقيقة الوحيدة التي قد تعترف بها أمامه على أي حال.

تلاشى أي أثر لدعابته الساخرة وعلت وجهه برودة عدائية ظهرت في خطوطه القاسية الفظة. وقال:

- أنت لا تدعين بالتأكيد أني حطمت قلبك؟ ربما أكون خيبت آمالك في المستقبل بعض الشيء؟

- حطمت قلبي؟

كررت «إينديا» ذلك في محاولةٍ لضبط النفس والتأكد من عدم تسرب أي ظلٍّ للحقيقة منها.

- لا. لست أدعي ذلك أبداً.

إذا ما أرادت إقناعه بالواقع، فعليها فعل ذلك الآن وللمرة الأخيرة. فقالت:

- في الواقع، كما سبق أن قلت في الليلة السابقة، أنا ممتنة لك. فلو أنك لم تتخل عني كما فعلت، لكنت علقت في زواج طائشٍ متهور وغير مناسب على الإطلاق. ولكننا بعد فترة قصيرة، أدركنا خطأنا. لكن ذلك كان سيزج بنا في إجراءات الطلاق المزعجة للخروج من المأزق.

- في مقابل ذلك، وجدت نفسك حرّةً وعلى أتم الاستعداد للزواج بحبيبك جيم.

www.elromancia.com

كما في المرة السابقة، افتقر جواب «إيدان» إلى أي نوع من المشاعر وهذا ما أضرم في نفسها ألماً حاداً، اضطرت معه للعض على شفتها السفلى بقوة. لكنها استغلت الفرصة التي أتاحها لها. فإذا أراد الاعتقاد بأنها و«جيم» على علاقة عاطفية، فلن توقفه أو تمنعه من ذلك. وقالت:

- هذا صحيح. فجيم... بقي في صحبتي...

كادت تقول «واساني» لكنها استدركت. وأضافت:

- منذ السنة الماضية، أصبحنا مقربين كثيراً. وأعتقد أن عائلتينا تتوقعان إعلان خطوبتنا قريباً.

تشدّق «إيدان» قائلاً: «تهاني. أنا متأكد من أنه يناسبك تماماً».

تكلم «إيدان» بأسلوب جعل الأمر يبدو كحكم بالسجن المؤبد. وأضاف:

- من الواضح أن والدك يفضل عاملاً بسيطاً مبتدئاً على رجل ذي خلفية مثلي.

- حسناً، إن عم «جيم» عضو في مجلس النواب، وجدّته ابنة أحد النبلاء.

تملك «إيندیا» شعور رهيب بأنها عبثاً تحاول جعله يسمعها.

دمدم «إيدان» قائلاً: «هل أضع هذه الأكياس جانباً؟»

- لا حاجة لذلك.

كان من المستحيل أن تخفي ألم المرارة التي سببها عدم اكتراثه. وأضافت: «لكن شكراً لإدخالها».

نظرت تلقائياً إلى الباب متوقعة أن يفهم ما تلمح إليه ويغادر المنزل. لكن «إيدان» هز رأسه فحسب بهدوء لم تحتمله. وقال:

- آه لا يا جميلتي. لن أغادر قبل أن أتكلم مع والدك الغني.

ذعرت «إيندیا» حين وضع أحد الأكياس بهدوء على الطاولة وبدأ يفرغه من محتوياته بالترتيب. وشرع في وضع المعلبات والرزم في أماكنها حسب العادة، مما جعل الذكريات المريرة تفطر قلبها. فقالت: «لا تستطيع. إنه... في الخارج».

لو أملت ولو قليلاً أن يحمل مرض والدها «إيدان» على التراجع، أو على إظهار بعض الاعتبار والتفهم، لأخبرته الحقيقة. لكن هذا الرجل و«بروس مارشنت» كانا على شجار دائم. وما من أدنى شك أن «إيدان» سيذهب مباشرة إلى

المستشفى لمواجهة خصمه في أي موضوع يشغل فكره. سيطر عليها الخوف حين فكرت بأثر هذا اللقاء على صحّة والدها الضعيفة.

فقال لها: «هذا واضح. إذن، متى سيعود؟»

- لا أستطيع القول.

- لا تستطيعين أم لا تريدين، أيتها الأميرة؟

- لا أعرف متى سيعود!

- إذن، سأنتظر حتى يعود. لا يستطيع البقاء بعيداً طوال اليوم.

- بلى يستطيع!

ثم خطرت في ذهنها فكرة ملهمة: «لقد ذهب في عطلة نهاية الأسبوع. و...».

تلاشى صوت «إيندیا» حين هز «إيدان» رأسه مستنكراً، وقال:

- محاولة جيدة حبيبتي، لكن متأخرة جداً. لو كان ما تخبرينني به صحيحاً لاستعنت بها قبل الآن. وفضلاً عن ذلك، رأيت سيارته في الموقف. أينما ذهب، لا أظنه ابتعد كثيراً.

فكّرت «إيندیا» يائسة أنه لم يغب عن باله أي شيء. وقالت: «فكر كما تشاء».

عكست نبرة صوتها الهزيمة حين تابعت قائلة: «لكن لا تنادني حبيبتي! لست أي شيء بالنسبة إليك، ولن أكون ثانية أبداً!»

أجابها «إيدان» وهو يضع آخر علبة في الخزانة ويطوي الكيس الفارغ بحركات ثابتة ودقيقة: «حسناً، على الاعتراف بأن هذه التسمية ليست ملائمة. فمنذ وصولي كنت كل شيء إلا حبيبة».

انفجرت «إيندیا» غاضبة: «ماذا توقعت؟»

كانت عاجزة عن تصديق وقاحة الرجل. فتابعت قائلة: «بعد الطريقة التي عاملتني بها، لا تتوقع أن أرتمي في أحضانك وأعانقك بلهفة وشوق».

- أذكر مناسبات عديدة لم تفعلي فيها سوى ذلك.

قاطعته «إيندیا» بحدّة: «حسناً، الذكريات هي كلّ ما ستحصل عليه!»

ولم تكن كذلك بحاجة إلى من يذكّرها بالمشاعر التي كانت تعتمل في نفسها لمجرد وجوده بقربها. مجرد التفكير بذلك جعل نبض قلبها يتسارع بوتيرة حادة..

قال: «هذا جيد بالنسبة إليّ... في الوقت الحاضر».

كانت ابتسامة «إيدان» تشبه تلك التي ترتسم على وجه نمرٍ يرقد تحت أشعة الشمس وهو يرقب فريسته بهدوء، منتظراً الفرصة المؤاتية لينقضّ عليها.

ـ غير أني أتمتع بذاكرة قوية جداً.

وأضاف بفظاظة: «إن فنجاناً من القهوة سيكون جيداً».

روّع «إينديا» بمزاجه الذي تبدّل فجأة.

ـ أليس لديك عمل أفضل تقوم به؟

ـ بصراحة، لا.

لم يترك جوابه الفظ مجالاً للنقاش. فما كان من «إينديا» إلا أن هزت كتفيها مسلمةً وراحت تملأ إبريق القهوة.

ـ لماذا تريد رؤيته على أي حال؟

حاولت أن يبدو سؤالها طبيعياً، مع أنه لم يكن كذلك البتة.

ـ إنه يدين لي بالمال.

أنت والمئات غيرك... كبتت «إينديا» بصعوبة تعليقها في الوقت المناسب، لكن «إيدان» التقط شيئاً ما من التبدل الذي بدا على ملامحها.

ـ لا تبدين دهشة!

ـ لست كذلك.

إن يكن من شيء في مرض والدها قد زاد الأمر سوءاً إلى حدّ يفوق الاحتمال فهو اكتشاف الديون المتراكمة عليه، الديون التي لم يعرف بها أحد غيره.

ما كادت سيارة الإسعاف تنقله إلى المستشفى حتى ظهر الدائنون على أنواعهم في كل زاوية من المنزل يطالبون بأموالهم. كما وصلت أيضاً رسائل من المصرف يطالب فيها «بروس مارشنت» بدفع بعض ديونه من المبالغ الطائلة المسحوبة، دون ذكر الدين المقسط الذي حصل عليه وكان قد تأخر في دفع مستحقاته.

ـ إني دهشة فقط لأنه استدان منك أنت.

فدمدم «إيدان» بسخرية مجيباً:

ـ أموال مشبوهة، أليس كذلك؟ ليست بالشيء الذي قد يلوث النبلاء أمثالكم أيديهم به.

ـ آه، الآن أنت تبدو سخيفاً! لم يكن ذلك ما أقلق والدي فقط. بل كان قلقاً من سنوات شبابك الصخبة، كاعتقالك مرّاتٍ عديدة من قبل الشرطة.

ـ بالغت الصحف كثيراً... أعترف أني لم أكن قديساً. لكن في النهاية، هل يكون أحد كذلك في فترة المراهقة؟

ـ لم تعد مراهقاً منذ خمس عشرة سنة! أم أنك تدعي أن الرجال والنساء ـ خاصة النساء منهم ـ الذين استغليتهم ثم رميتهم جانباً في طريقك إلى القمة، هم فقط جزء من خيال الصحف أيضاً؟

ـ وهل تدعين أن والديك ـ والدك على الأقل ـ لم يعتقد يوماً أن ثرواتهم الطائلة الموروثة أضخم بكثير من المال الذي نجنيه من العمل الشاق؟

لاحظت «إينديا» أنه لم يجب عن السؤال. لكن، هل هو حقاً مرغم على ذلك؟ هل كانت من الغباء حقاً بحيث تظن انه قد يكترث فعلاً بالحسناوات اللواتي اقترن اسمه بهن، لفترة وجيزة في الماضي؟

ـ في حالتنا نحن، تفتقر عبارة «ثروة» بشدة إلى الدقة! فحسبما أذكر، منذ وفاة جدي وتورطنا في تكاليف الجنازة، اتخذت حياتنا شكل الفقر المقنع، حيث كادت المظاهر تحجب الحطام. لو نظرت تحت هذه المظاهر، لما وجدت شيئاً...

ـ وذلك حين دخلت أنا.

ـ أنت تعلم أني لا أشارك والدي آراءه عن...

قاطعها «إيدان» قائلاً: «لا، أنت لم تهتمي من اين يأتي المال طالما أن هناك من هو قادر على انتشالك من ذلك الفقر المقنع، الذي كنت تمقتينه جداً».

جعل صوت «إيدن» الهواء يتجمد من حولهما، مما زاد في صعوبة التنفس. وفجأة، بدت «إينديا» كأنها عادت بالذكرى إلى وقتٍ مضى، لترى نفسها قبل أكثر من سنة بقليل، في تلك السهرة التي بدأ فيها كل شيء.

لو لم يكن «روب» السبب، لما شعرت هكذا في الأصل. «روب» هو الرجل

الذي كانت تخرج معه في الأشهر القليلة الماضية، والذي ظنت معه أنها توشك أن تقع في الحب.

كانت مقتنعة بمشاعرها تجاهه، لذا سحقت حين قام روب فجأة بفسخ علاقتهما بقسوة ودون أي اكتراثٍ بمشاعرها.

ولكم تفاقمت حدة شعورها بالخسارة، ولكم جرحت كبرياؤها حين ظهر «روب» في السهرة مع امرأةٍ أخرى إلى جانبه.

قالت لصديقتها متذمرةً: «إنها ابنة رئيسه في العمل، بلا شك!»

حاولت إخفاء ألمها وراء ستار من الازدراء حين تابعت تقول:

ـ لكن، أعني... أنظروا إليها فحسب! لست أدري ما الذي يعجبه فيها.

قالت «روز» بنبرةٍ ساخرةٍ واثقة:

ـ واجهي الحقيقة. إن ما يعجبه حين ينظر إلى الآنسة «بانيستر» هو مدخول شخصي يبلغ بضعة آلاف سنوياً، وطريقاً ممهداً للوصول إلى مكتب والدها. دون ذكر التوقعات بمستقبل باهر ومربح جداً، إذا ما عرف كيف يلعب لعبته. قد يكون لعائلتك اسماً ومنزلةً اجتماعية مرموقة، «إيندي»، كذلك شجرة العائلة أيضاً، لكنكم لا تملكون المدخول المتوفر المطلوب الذي يسعى إليه رجال مثل «روب».

وافقت «إيندیا» على ذلك قائلة:

ـ والمدخول الذي تمتلكه عائلة «مارشنت» يستهلكه ذلك الركام القديم المتداعي الذي يصر والدي على تسميته بمنزل الأسلاف! سيحتاج قريباً إلى سقفٍ جديد، وليس لدينا في المصرف ما يكفي لتغطية تكاليفه.

تدخّلت «جاين» وهي تومىء إلى حلبة الرقص حيث كانت الشقراء ملتصقة بـ«روب» وقالت:

ـ هذه ليست من المشاكل التي قد تعنى بها الآنسة «بانيستر» العزيزة. إن هذا الثوب البسيط الذي ترتديه مستورد مباشرةً من شوارع باريس. وأراهن أن الثمن الذي دفعه والدها لقاءه يتخطى من بعيد ما يكلفه سقف منزلكم الجديد. إن أزياءنا الراقية لا يمكن أن تضاهيه.

انفطر قلب إيندیا كأنه ضرب بسكين حاد حين ألقت نظرةً أخرى نحو «روب» ورفيقته.

ـ يا إلهي، لقد سئمت وتعبت من الفقر المقنع! أعتقد أنه آن الأوان لأفعل شيئاً في ذلك. راقبيني فحسب! سأجد لنفسي زوجاً ثرياً، يستطيع أن يجعلني أحيا بمستوى أنوي التعود عليه. فأستطيع حينها أن أجلس بهدوء وأمتع نفسي دون أن أقلق من شيء أبداً.

أجابتها صديقتها: «حسناً، لن تحصلي على فرصة أفضل من البدء هنا، الليلة. فلا بد أن يحضر إلى هنا زبدة المجتمع، من فنانين ورجال أعمال عالميين. بإمكانك الاختيار».

ـ هذا ما أنوي القيام به!

لم تكترث «إيندیا» لارتفاع صوتها فقالت:

ـ ولن أجلس بانتظاره ليأتي إلي. الواقع أن الرجل الثري التالي الذي سيلج من هذا الباب، سيجد نفسه فريسةً لحملةٍ من الإغراء بحيث أنه لن يتمكن من مقاومتي. وأراهنك بأني سأضع خاتمه في إصبعي قبل أن يدرك ما الذي صعقه وذلك في مهلةٍ لا تتعدّى الثلاثة أشهر كحدٍّ أقصى.

ـ هكذا كنت ترين الأمر، أليس كذلك؟

قاطعها «إيدان» وسط ذكرياتها وأضاف:

ـ صحّحي لي معلوماتي إن كنت مخطئاً.

أجابته وقد أشاحت بنظرها عن عينيه:

ـ لا أعتقد أنك ستصدقني إن قلت لك إن ذلك لم يكن سوى مزاح لا غير؟

قال «إيدان» بقسوة: «في هذه الحالة، ارتد المزاح عليك».

وكانت عيناه الصلبتان وعضلات وجهه المنقبضة قد أوضحت الرسالة التي حملتها نبرته.

ـ لم أعرف أنك كنت تتنصت.

ضحك «إيدان» بخبث قائلاً:

ـ لا؟ لا بد أنك ارتكبت خطأً هناك يا عزيزتي، أليس كذلك؟ لقد اعتقدت

حتماً أنك نجحت في حقيق مأربك. فكما تمنيت، وقع رجل فاحش الثراء فوراً في الشرك الذي نصبته بعناية.

كانت ضحكته أسوأ وقعاً هذه المرة لما حملته من دعابة ساخرة.

- من المؤسف أنك لم تلاحظي أن النافذة كانت مفتوحةً خلفك حين دبرت مكيدتك الصغيرة، وأنها حملت كل كلمةٍ من حديثك إلى الخارج حيث كنت قد وصلت للتو إلى الباب الرئيسي. وكما يقولون، من أُنذر مسبقاً أتى متسلحاً. كان يجب أن تري وجهك. بدوت كأن كل أمنياتك في ليالي الميلاد قد تحققت دفعةً واحدة وحصلت تماماً على ما سبق أن طلبته من بابا نويل.

- حسناً، لقد حصلت أنت أيضاً على مرادك!

بانت «إيندیا» عاجزةً عن تحمل وخزه أكثر من ذلك، فشعرت بالحاجة إلى صفعه، بالكلام على الأقل، ليشعر قليلاً بحزنها العميق.

- وماذا كان ذلك؟

كان صوته شديد البرودة مرةً أخرى، وارتعشت «إيندیا» وهي تجيبه بانفعال:

- حصلت علي أنا! تجاوبت مع «مكيدتي الصغيرة» لأنها كانت تناسبك. أم أنك ستحاول نفي ذلك الآن؟.

هز «إيدان» رأسه بحسم وسكون، محدقاً بتصميم مزعج في وجهها بعينيه الداكنتين، مما جعل الخنجرَ الحاد ينغرز بوحشية عميقاً في موضع الجرح. وتابعت:

- وعندما لم تحصل على جسدي بالطرق غير الشرعية، سألتني الزواج.

لم تكترث بما بدت عليه من فظاظة، فتابعت قائلة: «ولكنك في اللحظة الأخيرة وجدت أن رغبتك فيَّ ليست بأقل من جناح بعوضة.. وكان أن رميتني في الكنيسة بدون أن تشعر بالذنب».

- اللعنة عليك!

تلاشى صوت «إيندیا» فجأة، وخانتها الكلمات حين أطلق عليها «إيدان» لعنةً متوحشة ووقف على رجليه بحركةٍ عنيفة جعلت كرسيه ينقلب على الأرض خلفه مصدراً صوتاً قوياً ومروعاً. وقال:

- اذهبي إلى الجحيم أيتها الأميرة! إن كان هذا هو وقت المصارحة، فليكن إذن لكلينا.

ودار حول الطاولة متجهاً نحوها، وقد علت وجهه ملامح أجفلتها فابتعدت خائفة لأنها رأت الخطر محدقاً في عينيه.

لكن يدي «إيدان» الرشيقتين التفتا حول ذراعيها بشدة، لتمنعاها من الهروب. لم تستطع وهي عاجزة عن الحراك إلا أن تدير رأسها بعيداً لتتجنب النظر في عينيه.

تشدق وهو ينظر إلى وجهها المبعد عنه بعناد، قائلاً:

- وسوف تستمعين إلى ما أريد قوله حتى لو اضطررت لإدخال كل كلمةٍ ملعونةٍ إلى رأسك بالقوة.

ولكي يثبت ما قاله، هزها بقسوةٍ لا بعنف، لكن ما يكفي لتعلم ما قد يكون عليه طبعه إذا ما انفجر وأفلت من القيود التي يفرضها عليه.

- نعم، لقد أردتك...

فلم تستطع «إيندیا» إلا أن تقاطعه قائلة: «جسدياً». وبطرف عينها، رأت إيماءة رأسه القويةَ التي أكدت كلامها.

- لم أنكر ذلك قط وسأكون مجنوناً إن حاولت. يكفي أن أنظر إليك لكي أرغب فيك وبعدما عرفت أنك لست سوى مضاصة دماء وعاشقة مالٍ رخيصة لم استطع تبديل ما أشعر به، لسوء الحظ. كنت أتمنى العكس. لكنك أسأت فهم شيءٍ واحد.

- لا...

خرج اعتراضها لا إرادياً وهي تدير رأسها من الصدمة حين استجمع فكرها ما قد سجّله من كلامه. «يكفي أن أنظر إليك لكي أرغب فيك».

لقد تكلم في صيغة الحاضر... وليس الماضي.

«لا!» لم ترده أن يقول ذلك. لم تكن تريد أن تسمع تأكيداً لمخاوفها.

- بلى.

كانت ابتسامته كريهةً حين ارتسمت على شفتيه في رضا. فقد عكست عيناها

اللتان غشيهما الظلام تحميها لما سوف يحصل.

- آه، نعم يا أميرتي الحبيبة. لقد أسأت تماماً فهم شيء واحد. وهذا الشيء الواحد يحدث كل الفرق. بإمكانك القول إني لم أكتف منك قط ولن اكتفي منك أبداً.

هزت «إيندیا» رأسها بيأس شديد، وجعلت يديها أمام وجهها كأنها تحتمي من كلامه. لكن «إيدان» تجاهلها وتابع دون رحمة:

- لم أكتف يوماً منك. أردتك لي حينها. أردتك بشدة إلى درجة أن مجرد التفكير بها يبعث الألم في نفسي. وأريدك الآن. والواقع أنني أريدك أكثر من أي وقت مضى. ولم يغير من هذا الواقع أي شيء مما حصل.

***

٤ - يجتاح الاخضر واليابس

«لم أكتف منك قطّ ولن أكتفي منك أبداً».

كانت كلمات «إيدان» ذات النبرة القاسية، تدور وتدور في رأس «إيندیا»، فيزداد وقعها حدةً في كل مرة.

ارتعشت «إيندیا» في نفسها حين شعرت بالوعد الذي عكسه صوته الأبحّ. أم كان يعني التهديد؟ في هذه اللحظة، لم تعرف ولم تكترث. لكن فكرةً جديدةً أتت بقوةٍ مذهلة جعلتها تستجمع قوتها بحزم.

لاحظت «إيندیا» أن هذا ما أراده تماماً. فقد دبر الأمر عمداً ليفقدها توازنها. إن هي أظهرت الخوف أو انفعلت بعصبية يكن هو الرابح، أو يكن على الأقل قد سيطر عليها بقوة. فلتحل اللعنة عليها إن هي سمحت له بذلك!

ابتلعت ريقها بصعوبة ورطبت شفتيها الجافتين بلسانها. وحين رأت نظرته الداكنة العميقة تنخفض لتتبع حركتها، كررت ذلك.

همست بصوتٍ أبح: «إذن، ما زلت تريدني. هذا لا يفاجئني. فلطالما كان بيننا تجاذب غريب».

لقد أفقدته توازنه الآن. علمت ذلك من سكونه المفاجيء وعينيه اللتين لم تطرفا سوى مرة واحدة وبصعوبة. فعجزت عن إخفاء ابتسامة النصر التي ارتسمت واسعةً على شفتيها.

نظرت إلى عينيه مباشرةً، وسطع وجهها بتحد مغيظ، تاركة ابتسامتها تتسع ببطء. وقالت:

- في النهاية، ليس ضرورياً أن تعجب بأحدٍ كي تريده.

www.elromancia.com

سحب «إيدان» نفساً قاسياً وقال:

ـ ليس ضرورياً بالتأكيد. وإن أردت برهاناً...

قبل أن تتمكن «إينديا» من التفكير، ومن التكهن بما في ذهنه، أدارها لتواجهه بالكامل وأحاطها بذراعيه القويتين، فالتصقت به بشدةٍ وشدّها إليه معانقاً إياها بوحشية.

ـ ما دخل الإعجاب بكلّ هذا؟

كان ذلك ما توقعته من رد فعلٍ، وما سعت إليه. وقد مكنتها تلك الثوانٍ القليلة من الاستعداد الفكري، ومن التجاوب مع عناقه بثقة فوجئت هي نفسها بها. لقد بادلته عناقه، وكانت تبتسم منتصرةً حين شعرت بتجاوبه.

لكن الأمور كانت حينها قد بدأت بالتطور بشكل مروع وخاطىء يبعث على القلق. بدأت «إينديا» هذه اللعبة بمزاج من اللهو والتحدي. وتوقعت شيئاً مماثلاً لمباراةٍ. كانت تعرف أن بعض الشراراتٍ ستتقد، لكنها ظنت أن الأسلحة العاطفية التي يستعملانها ستمنع أياً منهما من تسديد ضرباتٍ مباشرة، الضربات المؤذية على الأقل.

غير أن مبادرة «إيدان» لم تكن في شيء منها فرحة، كذلك استجابتها له من تلك الناحية. فقد تبدلت الأجواء بعد خفقتين اثنتين من قلبيهما، واستجابت لعناقه وشعرت بالحاجة الماسة إليه.

ـ لم تنسني إذن.

وضحك بصوتٍ أجشّ أبحّ ضحكةً فيها شيء من الدعابة ومن اليأس.

فكّرت «إينديا» بغموض قائلةً في نفسها: أنساك. أبداً!

لقد ظنت أنها أبعدت هذه المشاعر عن ذهنها، لكنها في الواقع كانت مختبأةً في مكانٍ مؤقتٍ لم تجرؤ على النظر إليه. فالآن تحررت كل المشاعر التي دفنتها قبل سنة.

ـ آه «إينديا» يا أميرتي، ليتك تعرفين...

اختنقت الكلمات في الصوت الأجشّ. وسكت «إيدان» فجأةً.

ـ إيدان؟

في اللحظة التالية، لاحظت شيئاً ما في طبيعة سكونه، وأدركت أنه كان يستمع بتركيز. فتجمد لسانها وحاولت سماع الصوت الذي نبهه.

تناهى إليها صوت شقيقها آتياً من الرّدهة: «مرحباً إيندي، لقد عدت!»

ـ يا إلهي! إنه غاري!

زودها الذعر بقوةٍ لم تعرف لها مثيلاً من قبل فابتعدت عنه.

ـ إيندي؟ أين أنت؟

ـ هنا.

ارتعش صوتها المتهدج الضعيف، وكانت يداها ترتجفان.

ـ في المطبخ...

فكرت مذعورة أنها لن تستطيع بعث الهدوء إلى نفسها في الوقت المناسب رفضت أصابعها الإطاعة وتحولت إلى أصابع خرقاء وهي تتصارع مع شعرها الذي تشعث. ثم توقفت عن الحركة بدهشة حين تحرّك «إيدان» فجأةً بعدما رمقها بنظرة مراقبة. وأمسكت يداه يديها بهدوءٍ وأبعدهما عن شعرها. ثم بدقة متناهية، امتدت يده وأخذ فرشاة للشعر ثم بدأ يمشط شعرها بهدوء تام، وما كاد يبتعد عنها بضع خطواتٍ أنيقة حتى فتح الباب.

ـ لدي بعض الأخبار، أختي! أخبار عظيمة!

لم تسمع الباب الرئيسي وهو يفتح. فقد سيطرت عليها مشاعرها وغرقت في عناق هذا الرجل بحيث لم تعد تدرك أي شيء غيره.

وحين استعادت تركيزها، وتذكرت المكان الذي جاء منه «غاري»، كان الأوان قد فات لإيقافه عن الكلام.

ـ حين كنت في المستشفى، فتح أبي عينيه! كان ذلك للحظة واحدة، لكنه فتحهما! يقول الأطباء...

استجمعت بعض قواها وقاطعته إينديا بسرعة: «غاري! لدينا زائر».

أومأت إلى «إيدان» لتلفت انتباهه إليه، وكان جالساً عند الطاولة يرشف قهوته، فبدا كأنه لم يبرح مكانه منذ ساعة أو أكثر.

ـ آه... مرحباً «إيدان».

دهشت شقيقته من تقبله الطبيعي لحضور الرجل. لكنه كان يؤلّه الأبطال أمثال «إيدان»، فشقيقها لم يدن إيدان على تصرفه في يوم الزفاف.

أجابه «إيدان» بطبيعية مماثلة: «مرحباً بك أنت».

لكن «إيندیا» التقطت التجهم والعبوس الخفيف بين حاجبيه الداكنين، وتقلص هاتين العينين. وعلمت أن خلف هذا المظهر الخارجي الهادىء المضلل، كان ذهنه المتيقظ الدقيق يعمل ساعاتٍ إضافية. وكانت على حقّ.

علق «إيدان» بلطف: «قلت والدك. لم هو في المستشفى؟»

ـ ألا تعلم؟ ألم تخبرك «إيندي» عن النوبة التي أصابته؟

ـ من الواضح أنها لم تصل إلى ذلك بعد.

عكس صوت «إيدان» المدروس نظرته الساخرة التي علمت «إيندیا» بوجوب تألقها في عينيه.

ـ أعتقد...

بدأت «إيندیا» بالكلام من بين أسنانها، لكنه لم يدعها تكمل. فقاطعها بنبرةٍ تؤكد بوضوح جنونها المطلق إن هي حاولت الجدال وقال:

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن تدعي غاري يخبرني.

علمت أن الاستمرار في الاعتراض لن يزيد الأمر إلا سوءاً، فأطبقت فمها بقوة لتكتم انفجار غضبها الذي كاد يتطاير منها. لم يكن لديها خيار آخر سوى التزام الصمت. علم «إيدان» أنه تغلّب عليها، فتابع قائلاً:

ـ إذن ما هي قصة والدك؟

حين كان «غاري» يروي قصة مرض والدهما، دفعت «إيندیا» نفسها إلى الحركة. فأرغمت نفسها على ملء الإبريق لإعداد القهوة الطازجة. لم تكن تريد شرب القهوة، ولم تكن بالطبع تشعر بواجب الضيافة نحو «إيدان»، بل أرادت إلهاء نفسها بعمل ما.

حاولت إقناع نفسها بألا تنظر إلى «إيدان» كي تستطيع إعادة الهدوء والراحة إلى نفسها. لكن أملها خاب من هذه الناحية بمرارة، فعندما يتعلق الأمر بهذا الرجل تفشل في كل شيء.

حين أنهى «غاري» قصته، سمعته «إيندیا» بشيء من الإنكار والجحود يقول:

ـ حسناً، لقد اشتبهت بحدوث أمرٍ مماثل. يا له من مأزق! أليس كذلك؟ لكننا نستطيع تسوية الأمر.

جعل ذلك «إيندیا» تصفق فنجانها على الطاولة وتدور بسرعةٍ كشفت عن مشاعرها. فسألته بحدّة: «نستطيع؟» وازداد قلقها حين قابلها بابتسامته المتألقة.

ـ حسناً، من الواضح أنك بحاجة إلى المساعدة. أنا على استعدادٍ لفعل كل ما أستطيع...

ـ لا، شكراً!

إنها تؤثر الموت على ذلك.

ـ نحن نتدبر أمرنا جيداً.

ـ هذا واضح.

ثم تابع بنبرته الساخرة: «منذ أن وصلت شعرت أن لديك الكثير مما يشغل بالك. وكل من لديه نظر سليم سيلحظ أن المنزل ومحيطه قد أهملا مؤخراً. وقد اعترفت بنفسك ببعض المشاكل المالية».

ـ غاري...

تنبهت «إيندیا» حين رفع شقيقها رأسه بحركةٍ فجائية، ونظر إليها نظرةً فضولية. فتصرفت بسرعةٍ للحد من الضرر قدر الإمكان.

ـ يجب أن أنجز بعض التنظيفات. وقد وعدتني بمساعدتي في ترتيب الأسرة.

ـ آه! لكن إيندي...

ـ إنطلق يا فتى.

وبشكلٍ غير متوقع، وافق «إيدان» على كلامها قائلاً لغاري:

ـ سأكون هنا حين تنتهي من عملك.

أخذت «إيندیا» عهداً على نفسها بألا تدع ذلك يحصل. وما إن أغلق الباب وراء شقيقها حتى استدارت نحو «إيدان» بعينيها المتألقتين في تحدّ، وقالت:

ـ إننا نقدر عرضك بالمساعدة.

رفضت أن تنحدر إلى مستوى الردّ عليه بانفعالٍ وغضب. وعلى الرغم من

www.elromancia.com

ذلك، عكست نبرتها بوضوح حقيقة مشاعرها. وأضافت:

ـ لكننا حقاً لسنا بحاجة إليه. لذا...

قاطعها «إيدان» بابتسامة بعثت فيها الارتعاش وهو يقول:

ـ لم يكن عرضاً، أيتها الأميرة. فالعروض تمنحك الفرصة للتفكير، للقبول أو الرفض. أما هذا فليس موضوعاً للنقاش. أتيت إلى هنا لأرى والدك، ومن الواضح أنه ليس بصحةٍ جيدة تمكنه من رؤيتي. لذا، سأبقى في الجوار حتى يتمكن من ذلك.

ـ إن اقتراحك إذن بالمساعدة ما كان سوى تضليل لإبعاد «غاري» عن الحقيقة! والذي عنيته بالفعل هو أن والدي مدين لك بالمال وأنك لن تغادر دون استرجاعه!

قفز قلبها بشكلٍ مؤلم حين وقف «إيدان» على رجليه مرةً أخرى. وعبر المطبخ ليغسل فنجانه بالماء. ذكّرتها هذه الحركة بشدة بما هو عليه هذا الرجل من حضورٍ قوي.

ـ بكم يدين لك والدي على أي حال؟

أجابها «إيدان» بفظاظة ساخرة: «بالكثير».

عضت «إيندیا» بقوة على شفتها السفلى لتكبح الأنين الذي كاد يصدر منها. كان يجب أن تعرف! فكل فاتورةٍ جديدة، وكل مطالبة جديدة، كانت تكشف أكثر فأكثر المأزق المالي الذي تورّط فيه والدها.

ـ كم هو الكثير تحديداً؟

قد تتمكن ربما من دفع هذه الفاتورة. فهي تفعل أي شيء لإبعاد «إيدان» عن طريقها، وعن منزلها. وعن حياتها مرةً أخرى.

لم يجب «إيدان» فوراً، بل أخذ وقته عمداً. فجعل يجفف الفنجان ثم وضعه في المكان المناسب. ومرّةً أخرى، انفطر قلبها حين لاحظت اعتياده على المطبخ.

تكلم «إيدان» بنبرةٍ ساخرةٍ متهكمة:

ـ أشك في قدرتك يوماً على دفع ما يكفي لتسديد هذه الفاتورة. حتى إن كنت تفكرين في تسديدها بغير المال.

وأشاح بعينيه عمداً إلى الطاولة الخشبية.

ـ لا يمكنك فعل ذلك! لن تفعل ذلك!

ـ جربيني.

كان صوته منخفضاً وناعماً بشكلٍ يدعو للريبة بحيث يكاد يكون لطيفاً، لكن التحدي الفظ في عينيه كان غاية في الوضوح.

ـ تظنني قد أبيع روحي...

أوقفتها ابتسامة «إيدان» المقيتة ومنعتها عن متابعة الكلام.

ـ لا أظن أننا نتكلم عن الروح الآن. ففي النهاية، لم تكوني مكترثة جداً بالقضايا الروحية في السنة الماضية. وكنت على استعدادٍ تام حينها لبيع نفسك لقاء ثمن خاتم الزواج.

ـ لم يكن الأمر كذلك!

ـ كيف كان إذاً؟ سبق أن عرفنا أن الزواج بالنسبة إليك يعني مستقبلاً مريحاً وتأميناً مالياً مدى الحياة...

كان الزواج بالنسبة إليها يعني أكثر بكثير من ذلك. لكنها لن تجرؤ الآن على السماح له بمعرفة ذلك. والسبب الأول هو أن «إيدان»، لن يصدقها أبداً. أما السبب الثاني، فيعود إلى كونها باتت عاجزة عن التعاطي مع تلك الأحاسيس السابقة بعد الآن.

ـ أتظن أنني وافقت على الزواج بك لأستغلك؟

«استغلال؟» ارتفع حاجبه الأسود في تساؤل. وللمرة الثانية، أشاح بعينيه الداكنتين نحو الطاولة في تأمل.

لم تصدق «إيندیا» حين رأت الدفء المثير للدهشة يغمر الابتسامة على فمه الجميل، وقد حفلت بالذكريات اللطيفة. وتحوّل وجهه كلياً بفعل ذلك... إلى أن نظرت إلى عينيه ورأت الدفء قد غاب عنهما بعد أن عكس لونهما القاتم برودةً قاسية.

ـ أردت استغلالي وأردت استغلالك لكنني عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة. مع أنك أسأت كلياً فهم أمرٍ واحدٍ حبيبتي.

ـ وما هو؟

تكلمت «إيندیا» بانزعاج من النفاق الجلي في كلمة حبيبتي. منذ بضع لحظاتٍ فقط، استطاعت أن تميز «إيدان» هذا عن ذاك الذي عرفته في الماضي، لكنها أخطأت كثيراً.

الحقيقة الوحيدة هي أنها لم تعرفه قطّ فعلياً من أي ناحية. لم تر سوى ما سمح لها برؤيته، وما أرادت هي رؤيته. وأقنعت نفسها بسذاجة وجنون بأنه كان يبادلها المشاعر أيضاً. وبعد أن أعمتها هذه المشاعر عن رؤية الحقيقة.

ـ لست غبية، أيتها الأميرة وأنت لست عمياء أيضاً.

مال «إيدان» نحوها، ونظر بعمقٍ في عينيها المشدوهتين نظرة شلّت حركتها.

ـ تعلمين أنك جميلة ومذهلة. أنت امرأة مثيرة ورائعة. أنت أجمل امرأة رأيتها قط في حياتي.

طالما أحبت «إيندیا» نبرة صوت «إيدان» ونغمته. والآن كان صوته لا يقاوم وهو ينفوه بهذا الإطراء المتمادي.

لم تستطع تركه يتابع. كان عليها أن تتكلم لكي تهرب من السحر الذي نشره حولها. لكن لسانها عجز عن نطق أي كلمة حين ابتسم «إيدان» ابتسامةً مدمرة.

ـ تعلمين أني لم ولن أسأم منك أبداً. كان يكفي أن أنظر إليك لكي تستعر النيران وتتأجج في داخلي. وما زلت.

شعرت «إندیا» بالدم يندفع حاراً إلى عروقها.

ـ وأنت تبادلينني هذا الشعور. أنا أعلم ذلك.

اقترب «إيدان» منها ومرر أصابع يده بنعومة على وجنتها. وانسمت ابتسامته حين رأى وجهها الممتقع. وأضاف:

ـ لقد أثبت ذلك للتو. مما يجعل من مشاركتك المنزل نفسه في الأسابيع القليلة المقبلة أمراً هاماً جداً.

خفق قلب «إيندیا» خفقتين قبل أن تبلغ كلماته عقلها. وحين أدركت ما تعنيه تلك الكلمات، كان وقعها أشبه بسهم برقٍ صعق قلبها. ودفعت يده بنفورٍ عن وجنتها.

ـ ماذا قلت إنك ستفعل في الأسابيع القليلة المقبلة؟

علمت من التواء فمه أنه يعرف أنها سمعته جيداً في المرة الأولى. فأجابها:

ـ أنت في ورطة «إيندیا» وتحتاجين إلى المساعدة.

بدا لها منطقياً إلى حد غير معقول بحيث كادت أن تصدق في النهاية تعاطفه معها. وقالت:

ـ قد أكون بحاجة إلى المساعدة، لكن ليس منك أنت! لا أريد مساعدتك. إني أفضل الموت! لا أريد أي شيء منك.

التقطت المنشفة التي استعملها بحركاتٍ قاسيةٍ مرتعشة وبدأت بمسح نقاط ماء لا وجود لها من على سطح الطاولة.

ـ لا تريدين حتى سقفاً يظللك أنت... وعائلتك؟

أجفلت «إيندیا» وتوقفت عن الحركة فجأة، وقالت:

ـ عفواً، ماذا قلت؟

ما زاد في حيرتها أن «إيدان» بدا للحظة واحدةٍ مضطرباً حقاً.

ـ حسناً، بعدما عرفت بأمر والدك لم أعد قادراً على العودة إلى لندن لفترة من الزمن. وسأضطر للإقامة في ويستبوري. على الأقل حتى يتعافى والدك بشكل يسمح له بمحادثتي. وحتى هذا الوقت سأحتاج إلى مكان أقيم فيه.

ـ هناك العديد من الفنادق. وفي النهاية، أنت الآن تقيم في أحدها.

وتملكت «إيندیا» الشكوك حين أدركت ما هو آت.

ـ لكن هذا يعد خسارةً فادحةً، لأن في هذا المنزل الريفي غرفاً شاغرة كثيرة.

ـ إن أياً منها ليست متوفرة لك.

ولإيضاح قصدها، توجهت نحو الباب وفتحته واسعاً. لكن «إيدان» لم يحرك ساكناً للتجاوب مع تلميحها بالخروج.

ـ أريد البقاء هنا.

كانت نبرته قاسية ونظرة كوجهه أيضاً.

ـ وقلت إني أفضل الموت على أن أدعك تفعل ذلك! انظر...

حاولت بصعوبة أن تهدىء من روعها. ثم تابعت قائلة:

ـ أنت رجل ثري جداً، وتستطيع الإقامة حيث تشاء.

ـ لكني لم أكن دائماً ثرياً. ومن أول الأمور التي تعلمتها هي أن المرء لا يجمع ثروة كبيرة إذا كان يهدر المال الذي جمعه بالجهد والتعب. إن مجنوناً فقط قد يصرف المال على الفنادق في حين أنه يملك منزلاً فيه سبع غرفٍ شاغرة للنوم.

قالت «إيندیا» وهي ترتجف: «يملك...؟» وتمنت ألا يكون عنى ما فهمته. لم تتحقق أمنيتها إذ أومأ «إيدان» برأسه الداكن بفظاظة، وقد ارتسمت على زاويتي فمه ابتسامة مقيتة.

ـ هذا المنزل، إن أردت مزيداً من التحديد.

بلغ الباب بخطوتين ولكنه لم يفعل ذلك إلا ليجذبه من قبضتها المستسلمة ويعيد إغلاقه بإحكام.

ـ كنت أفضل أن تعرفي الحقيقة بطريقة أخرى، لكني الآن لا أجد أمامي خياراً آخر. سأكون فظاً في ما أقول، فلقد أسأت اختيار الرجل الذي تجب مهاجمته. إن من يقع عليه اللوم في هذا كله هو والدك.

ـ حسناً، أليس هذا نموذجياً؟ كنت أعرف أنك تكرهه، لكن أن توجه اللوم إليه الآن، وهو مريض وضعيف ولا يمكنه الدفاع عن نفسه...!

ـ «إيندیا»، إنها الحقيقة. هو الذي أوقع نفسه ـ وأنت معه ـ في هذا المأزق.

تذمرت «إيندیا» قائلة: «أي مأزق؟»

وتملكها شعور قذر بأن الأرض تكاد تنشق وتبتلعها.

ـ حين قلت إن والدك يدين لي بالمال، لم أكن أتكلم فقط عن بضع مئات ـ أو عن بضع آلاف. عليك أن تعلمي أن الوضع أسوأ بكثير من ذلك. لطالما كان كذلك، حتى عندما كنا سوياً. إن مقامرته...

ـ آه، أعلم أنه كان يراهن على الخيول أحياناً.

حاولت أن تخفف من شأن الأمر. يبدو أن والدها كان جاهزاً للرهان على كل ما يتحرك.

ـ لكنه ما كان ليأتي إليك طلباً للمساعدة!

ـ لا. أدرك أن ذلك يؤلمه، لكنه لم يملك الخيار.

واجه «إيدان» اعتراضها بأن ربت بازدراء على يدها وتابع قائلاً:

ـ كان أبوك يمضي الوقت في نادٍ للقمار في كارلتون ـ وقتاً طويلاً جداً ـ وكان يخسر بشكل مريع. لكن، منذ نحو ستة أشهر، حالفه الحظ على نحو غير متوقع. لو كان رجلاً عاقلاً مدركاً لأخذ أرباحه وهرب، لكن «بروس مارشنت» لم يفكر على هذا النحو. فقد ظن أنه سيتمكن من استرجاع ثروة العائلة، ومن جمع أرباح إضافية علاوة على ذلك. هكذا، راهن بكل الأموال التي ربحها وبأموال لم يربحها.

هذا ما كان عليه والدها. اعترفت «إيندیا» بذلك في نفسها. لطالما بحث عن طريقة يجمع بها المال بسهولة. ولطالما كان يحسد من يفعل ذلك. لهذا السبب، كان دائماً ضعيف النفس أمام أي مشاريع وهمية تعد بالربح السريع، سواءً أكانت منطقية أم غير منطقية.

ـ هل ترغبين في الجلوس؟

لاحظ «إيدان» شحوب وجنتيها فأضاف: «قد تجدين من الأسهل...»

وسحب لها كرسياً عن الطاولة لتجلس عليه، لكن «إيندیا» رفضت النظر إليه حتى. ودمدمت:

ـ أتني من الآخر.

ـ حسناً. في النهاية، خسر والدك كل ما يملك، بالإضافة إلى ثروة صغيرة أيضاً. ثم قام بالتوقيع على أوراق الاعتراف بالديون كما لو كانت بطاقات معايدة في ليلة الميلاد. ورهن كل أملاكه تقريباً كضمان.

ـ لكن، كيف تعرف أنت كل تلك الأمور؟

أجابها «إيدان» بفظاظة: «أنا أملك ذلك النادي. وكل الأوراق التي وقعها والدك، كانت موجهة لي أنا».

وقع والدها الأوراق لقاء مبلغ اعترف «لون وولف» نفسه بأنه ثروة. لم تعرف قط أن «إيدان» يملك فعلاً نادياً. وحين التقته أول مرة، قال لها إنه يبحث عن فرصٍ محتملة للاستثمار في المنطقة. لكنه لم يحب يوماً الدخول في التفاصيل.

ـ والضمان؟

هل كان سؤالها ضرورياً؟ فقد جاء صوت «إيدان» الجاف ليؤكد ما كانت تخشاه، حين قال:

- لقد رهن هذا المنزل لقاء كل ديونه. وحين أصيب بالخسارة، أمهلته ستة أشهر لدفع المال قبل أن أمتلك المنزل. لهذا السبب، كنت أحاول كل الأسبوع أن أتصل به. وقد انتهت مهلة الستة أشهر منذ يومين. لذا، فإني منذ الأحد الماضي، أملك هذا المنزل وكل ما يحتويه.

***

٥ ـ حصون تتداعى

- إذن، كل هذا صحيح؟

علمت «إيندیا» أنها كانت تحاول التعلق بقشة. هذا ما قالته النظرة التي علت وجه الرجل الواقف أمامها.

كان «فريد كوران»، الشريك الأهم في شركة المحاماة حيث يعمل «جيم»، محامي العائلة منذ سنوات. وقالت لها معالم وجهه إنه لم يكن هناك أي أمل. لكن، بالرغم من ذلك، كان عليها أن تسأل.

- هذا صحيح وقانوني دون أدنى مواربة.

وقعت هذه الكلمات على راحة بالها كأنها الموت المشؤوم، كئيبةً، معتمةً غير قابلة للجدل إطلاقاً.

- إيدان وولف يملك منزل ويستبوري الريفي؟

حدث كل شيء كما قال «إيدان». رهن والدها منزلهم ـ البيت الوحيد الذي عرفته يوماً هي ووالدتها وشقيقها ـ وذلك ليسدد ديون القمار.

- لا تعتمدي على كلامي.

هذا ما قاله لها «إيدان» في اليوم السابق ـ حين أبت تصديق كلامه الفظيع.

- تحققي من ذلك. تكلمي مع محاميكم إن أردت.

هذا ما فعلته بالطبع، ولم يساعدها ذلك كثيراً. حين تكلم «إيدان» عن أوراق الاعتراف بالديون، تصورت في ذهنها قصاصات ورق غير مترابطة، خربش عليها والدها على عجلة في جو النادي العابق بالدخان والحرارة. قصاصات ورق غير واقعية أو منطقية، دون ذكر فعاليتها في المحكمة. لكنها كانت مخطئة إلى حد بعيد.

www.elromancia.com

أقرت «إينديا» بمرارة، بأن هذا ما كان عليها معرفته منذ البدء. ففي النهاية، إنها تتعامل مع «إيدان وولف»، الرجل الذي تعد براعته الفائقة واليقظة في عالم الأعمال أسطورية.

لم يعد هناك إطلاقاً إي مجالٍ للشك. أصبح منزل ويستبوري الريفي ملكاً «لإيدان وولف». ولم يعد لآل مارشنت منزلاً هناك، أو في أي مكان آخر. وارتعشت ببرودٍ وذعر حين فكرت كيف وضع تصرف والدها الأحمق عائلتها في قبضة «إيدان» كلياً.

ـ حسناً، لقد أثبت حقك!

هذا ما قالته «لإيدان» ذلك المساء، حين اتصل بها في المنزل كما هو محدد، لسماع ما تريد قوله.

عندما فتحت الباب مكرهةً لتدعه يدخل، لاحظت أنه عاد لارتداء الملابس الرسمية التي اعتادت في السابق على رؤيته بها. واختفى «إيدان» المتردد المضطرب في زيه غير الرسمي، ليحل محله بذلةً بالغة الأناقة بلونها الرمادي الفاتح، وقد ارتداها مع قميصٍ أبيض متموج. وكانت ربطة العنق الحريرية الخمرية اللون، هي اللمسة المضيئة الوحيدة في الزي كله.

ـ كل ما أطلبه، هو أن تمهلنا ـ فلنقل ـ سبعة أيام.

ـ أسبوع؟

رفع «إيدان» حاجبه المتكاسل في تساؤلٍ وهو يتمشى في الرواق براحةٍ واطمئنان تام وواضح. وبدا تماماً كأنه يملك المكان. ذكرت «إينديا» نفسها بأن هذا هو الواقع طبعاً.

ـ لماذا أنتم بحاجة إلى كل ذلك الوقت؟ كنت أظن أن ساعةً على الأكثر...

ـ ساعة؟

أكان الرجل بهذه الوحشية؟ كانت تعلم أنه يكون أحياناً فظاً وقاسياً، لكن هذا الحس الانتقامي الذي لا يعرف الرحمة...

ـ لم أخبر والدتي حتى!

لم تكن قادرة على حمل نفسها على التفكير في الاقدام على ذلك...، على الأقل،

حتى تتأكد من عدم وجود أي بديل آخر. فقد عانت والدتها الكثير. لذا، فإن إعلامها بأن منزلها الزوجي قد بيع في القمار، وبأنها مرغمة على مغادرته، سوف يدمرها.

ـ وسيتطلب الأمر منا بعض الوقت لتوضيب أغراضنا.

تابعت «إينديا» كلامها وقد بدت شفتاها من الخشب لشدة ما كانتا صلبتين ومشدودتين.

ـ أعني.. أعلم أنك تملك المنزل، لكن هناك بعض الأغراض الشخصية...

ـ ولم عليكم توضيب أغراضكم؟

بدا ارتباك «إيدان» شبه حقيقي. بالتأكيد لو أنها لا تعرفه جيداً لصدّقت ذلك بالفعل.

ـ حسناً.. أنت تتوقع منا أن نترك المنزل.

ـ ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟ أولاً، ليس لديكم مكان آخر تذهبون إليه.

خطر «لإينديا» أنها لم تكن بحاجة إلى من يذكرها بهذه الحقيقة، فصرت بأسنانها لتكبح جماح غضبها. لقد أمضت النهار بأكمله وهي تجهد بفكرها وتحاول إيجاد مكانٍ ينزلون فيه لفترة وجيزة على الأقل حتى يجدوا مسكناً. وما الذي سيحل عندما يخرج والدها من المستشفى؟

ـ لا تكوني سخيفة «إينديا». لا حاجة للرحيل إلى أي مكانٍ أبداً. هناك الكثير من الغرف هنا. كل ما أحتاجه هو مكان أنام وأعمل فيه.

طرفت عينا «إينديا» من فرط الصدمة والذهول: «هل تعرض...؟»

ـ أنا أدعوك لتكوني ضيفتي.

آه، لكم تمتع بذلك! لكم أحب إيضاح هذه النقطة البارزة والتذكير بها بشدة. أي أنه هو في موقع القادر على توجيه الدعوة للبقاء في المنزل. المنزل الذي دأب أبوها على إشعاره بأنه غير مرحب به فيه. فحنقت وقالت باستياءٍ وامتعاض مرير:

ـ أفضل النوم في فندق خاص.

أجاب «إيدان» غير مبالٍ بتحديها:

ـ حسناً، إن كان هذا خيارك...

وأضاف: «بالطبع، إن أحداً لا يستطيع منعك. لكني أظن أن عليك التفكير بوالدتك».

فغرت إينديا فاها أمام وقاحته.

ـ أتطلب مني التفكير بأمرٍ من الأجدر بك أنت أن تفكر فيه؟

أجابها «إيدان» بهدوءٍ وثبات: «على العكس. هل اعتقدت حقاً أني كنت سأرميكم خارجاً دون تردد؟ أي نوع من الوحوش تظنينني؟»

خطرت الإجابة في رأس «إينديا» بسرعة البرق:

ـ النوع الذي يتخلى عن عروسه في مراسم الزفاف!

ـ آه، ولكن سبق أن اتفقنا أنه لم يكن بيننا أي حب. والآن، أتظنين أن بإمكاننا متابعة الحديث براحة أكبر؟

وأشار بيده نحو الباب الذي يؤدي إلى غرفة الجلوس.

ـ إن كان ذلك ضرورياً!

دفعت «إينديا» الباب وفتحته، فتبعها «إيدان» إلى الغرفة الفسيحة المشمسة واتجه فوراً نحو النافذة لينظر منها إلى حديقة الزهور الخلابة التي تقع تحتها مباشرة. وقال بلطفٍ مفاجىء:

ـ لطالما وافقت والدتك الرأي بأن هذه الغرفة هي الأجمل في المنزل كله. سينفطر قلبها إذا اضطرت للمغادرة. اعترفي بذلك أيتها الأميرة. إن آخر ما تحتاجه والدتك هو المزيد من الكآبة والتوتر. فلديها الآن ما يكفي.

ـ لن نستطيع بالطبع الاحتمال إن علمت أنك تطارد والدي...

ـ لا!

أجفلت «إينديا» وتراجعت إلى الوراء في ذعر حين لفظ «إيدان» هذه الكلمة الوحيدة. ارتدت مسرعةً بضع خطواتٍ إلى الوراء وقد بدا عليها التوتر، ابتعدت عنه لكنه سعى وراءها، واقترب منها كثيراً في خطواتٍ ثلاث رشيقة رافعاً يده ليقبض بها على معصمها بشدة ويحتجزها. وقال:

ـ لم أطارد والدك، أيتها الأميرة. لو فعلت ذلك، لعلمت مكان تواجده ولعرفت بمرضه. أعطيته ستة أشهر ليأتي إلي بالمال. وأثناء ذلك الوقت انتظرته

ليأتي إليّ، اللعنة! ولم آت إلى هنا إلا حين تخلف هو عن المجيء، وذلك لكي أطلع على الأسباب.

ـ أراهن أنك استمتعت بشعورك بالقوة والسلطة، وبوضعه تحت رحمتك. لا بد أنك تلذذت بالانتقام..

قاطعها «إيدان» بحدة: «الانتقام عماذا؟ من الطريقة التي حاول بها منعي من الزواج بك؟ ولماذا أنتقم بسبب شيء قررت منذ البدء أني لم أرده يوماً؟»

الآن حتى بعدما التأمت الجراح على مر اثني عشر شهراً، عادت مشاعرها لتنسلخ من جديد حين أحست بقلة اكتراثه. فانفطر قلبها وتمزق بشكل مؤلم، بعد ما كاد يتماثل إلى الشفاء. وبحركةٍ عكست صدى أفكارها، انتزعت نفسها من يده. ووضعت بسرعةٍ بينها وبين «إيدان» كرسياً مطرزاً باللون الأحمر الباهت.

ـ سيخيب أملك إن ظننت الأمر كذلك، حبيبتي. لقد ورط والدك نفسه بنفسه في هذا المأزق.

ـ كان هذا ناديك أنت.

ـ وأفترض أني أرغمت والدك على الذهاب إليه؟

تناهى إليها صوت «إيدان» من الخلف بنبرةٍ ساخرة. وتابع قائلاً:

ـ وضعت مسدساً في رأسه وأجبرته على المقامرة بكل أملاكه؟

«لا». أجبرت «إينديا» نفسها على مواجهته ثانيةً بنفور وعلى مضض. لكن النظر إلى العينين البنيتين القاسيتين كان أمراً يصعب عليها تحمله. وأضافت:

ـ لكنك كنت قادراً على رفض أي رهانٍ إضافي.

ـ كنت قادراً.

كان صوت «إيدان» أشبه بالسوط اللاذع الذي يصفع الجلد على ظهرها وأضاف:

ـ لكني اخترت هذه المرة ألا أفعل. فربما اعتقدت أنه آن الأوان ليلقنه أحد درساً.

ـ تعني أنك كنت متلهفاً لإيقاعه في براثنك! وبالتأكيد، ما إن تمكنت من ذلك حتى حصلت على الفرصة المثالية للاستيلاء على المنزل الريفي ـ دون أن تكون

مضطراً للتورط في الزواج بأحد أفراد العائلة.

استعادت كلماتها ذكرياتٍ مقيتةً عن الفترة التي تلت إحضارها «إيدان» إلى المنزل. وها هي تسمع صوت والدها واضحاً جلياً كما لو كان في الغرفة، الآن:

- إن أردت رأيي، فهو يسعى وراء ما قد تقدمينه له. إن كان لديه من دافع، فهو الجشع وليس الحب.

لقد ضحكت من كلامه، وكانت واثقة كل الثقة بقناعتها في أن «إيدان» مهتم بها فعلاً. فقالت لوالدها:

- لا تكن سخيفاً يا أبي! «إيدان» يملك من المال مبالغ يجهل ماذا يمكنه أن يفعل بها. فما هو الذي أملكه ويحتمل أن يبغيه «إيدان»؟

نسيت رد فعل «إيدان» حين رأى منزلها لأول مرة. نسبت الدهشة والذهول في نظراته، وفي صوته حين دمدم بتعجب.

وراحت تسأله الآن بحدة: «ما هذا «إيدان»؟ هل تولعت بالمنزل حين كنت برفقتي؟ وبما أنك كنت مطلعاً على تعلق أبي بالقمار...»

أصابت شيئاً من الهدف. أدركت ذلك بشيء من المرارة حين رأت التبدل في هاتين العينين الداكنتين. فأشاح عينيه البنيتين عن عينيها ليحدق من النافذة إلى الشفق بغرابةٍ وشرود، وقال:

- أعترف أني أغرمت بهذا المكان ما إن رأيته.

لاحظت «إيندیا» بكآبة أنه أغرم بالمنزل وليس بها. وأضاف:

- لكن، إن ظننت أنني أردت الزواج بك لهذا السبب، فأعيدي النظر في الأمر. في النهاية، بإمكاني شراء منزل كهذا بثمنٍ يفوق ثمنه بكثير.

- منزل مثله وليس هو بالتحديد.

استحالت نبرتها الساخرة الموبخة إلى صرير. وبدمدمةٍ ملعونة، رفس «إيدان» الكرسي بعيداً وعاد ليقبض على معصمها بيدٍ صلبة، وقال:

- إن كنت تفكرين بهذه الطريقة...

وأخذ يجرها خلفه وهو يتكلم فأخرجها من الغرفة ومر عبر الردهة ليصل بها خارجاً إلى الحديقة. ورغم محاولاتها للتشبث بالأرض ومقاومته، لم يكن لدى

«إيندیا» خيار آخر غير أن تتبعه، عاجزة عن منازعة ذراعيه القويتين.

- حان الوقت كي ترى الأشياء على حقيقتها!

وبهزة عنيفة من ذراعه، أدارها «إيدان» لتواجه المنزل. وأمرها بقسوة:

- أنظري إليه! حقاً أنظري، عليك اللعنة!

لم تكن «إيندیا» بحاجة إلى أن تنظر. فهي تعرف حق المعرفة أن المنزل كان مهملاً، ونعي جيداً القرميد المتداعي وإطارات النوافذ المهترئة. إن لم يتم العمل بجد في إصلاحه، فسينهار المنزل الجميل القديم الذي طالما أحبته كثيراً ويتحول إلى خرابٍ ودمار.

- أتعتقدين فعلاً أن هذا المكان يعد استثماراً ناجحاً؟ الحديقة باتت كالأدغال، وأنابيب المياه قديمة، وكل نافذة في المكان بحاجة إلى تبديل. إلا إن كان لديك مجموعة من رعاة البقر الأقوياء لإنجاز العمل في السنة الماضية، فإن أحداً لم يمس القرميد منذ أن كنت هنا حينها.

تذمرت «إيندیا» قائلة: «لم نكن قادرين على تحمل كلفته».

«أراهن على ذلك». كانت نبرته مشبعة بالسخرية الخالصة، الممزوجة بشيء آخر، شيء لم تتمكن «إيندیا» من فهمه. وأضاف:

- سينهار هذا المنزل من حولكم إن لم يتم القيام بشيء في اسرع وقت. أما زال السطح يرشح بشكلٍ مريع؟

أومأت «إيندیا» برأسها بصمت. فهي لم ترد أن تتذكر مساء ذلك اليوم السعيد الذي أمضياه في التحقق من الخردة المتراكمة في علالي المنزل الضخمة. وقد أدى ذلك إلى أن يكتشف «إيدان» هذه المشكلة بالتحديد.

كان اهتمام «إيدان» لا يزال منصباً على المنزل وعيوبه:

- وشبكة الأسلاك خارج المبنى. سأحضر من يهتم بهذا فوراً.

علمت «إيندیا» أن هذا ما سيفعله. فحين يقول «إيدان وولف» إن عملاً سينفذ، فإنه ينجز دون أدنى تأخير.

- وقد ظننت حقاً أني سأرهق نفسي في حبك المؤامرات وتدبير المكائد بغية الاستيلاء على هذا؟

ولوح بيده بتعجرفٍ وتغطرس مشيراً إلى المنزل باستخفاف كأنه كومة من الخردة العديمة القيمة.

ـ هذا منزلي الذي تتحدث عنه!

كان صوت «إيندیا» مرتفعاً ومتوتراً، يعكس مزيجاً مريراً من الاحتجاج والألم.

ـ منزل من، إيندیا؟

كان صوته رقيقاً، لكن تخللته نبرة ساخرة شريرة.

ـ لست مضطراً لتكرار ذلك بشكل متواصل أيها القذر!

تملّكها الغضب، فاندفعت نحو وجهه بقوة لكنها أخطأت وجنته. كان «إيدان» قد تنحى جانباً ببراعةٍ ولفَّ الذراع التي يمسك بها حتى سجنها بإحكامٍ بين ذراعيه.

ـ إيندیا...

تجاهلت «إيندیا» الهدوء الذي لفظ به اسمها، وعاجلته برفسةٍ على ساقه. وشعرت برضا شرس حين سمعت صرخة الألم التي سببتها ضربة رجلها على كاحله.

ـ إيندیا، أنا آسف.

كان الصوت الذي تسلل أخيراً إلى ذهنها رقيقاً.. وتراخت اليدان اللتان كانتا تقبضان على يديها بإحكام.

ـ كان هذا قاسياً.

«أنا آسف»! اضطرب ذهن «إيندیا» منكراً ما سمعته، هل فعلاً قال «لون وولف» نفسه هذه الكلمات؟ هل اعتذر حقاً عن تصرّفه؟

ـ أنا أعلم كم يعني لك هذا المكان. وأنا أعدك بالاهتمام به.

(أنا أعدك). كانت هاتان الكلمتان كافيتين لإخماد الثورة والغضب في داخلها. خلال فترة تودهما الوجيزة، كانت لهذه الجملة قيمة تراهن حياتها عليها. فحين يعد «إيدان» بشيء، يفي به دائماً... إلاّ في مناسبة واحدةٍ هامة.

لكنه بالطبع، لم يقطع وعداً بالفعل. ولم يمكث في الجوار ليعدها بحبه

واحترامه، والإخلاص لها حتى الموت.

ـ أنا أريد فقط أن أصلحه لا أن أباشر بعملية تجديد فظيعة. أنت تصدقين هذا، أليس كذلك؟

وجدت «إيندیا» الإجابة عن هذا السؤال سهلة جداً. فأومأت برأسها قائلة: «أجل» وكانت مبعدةً وجهها عنه:

ـ أنا أصدّقك. أنا... أثق بك في ما يتعلق بالمنزل.

في ما يخص منزلها... لكنها لن تثق أبداً به في ما يخص قلبها. ثم سمعت صوتاً أشبه بتنهيدة صادقة صادرة من القلب، بلغت من الرقة ما جعلها ترتاب في أن تكون نسجاً من خيالها فحسب.

قال «إيدان» بقسوة: «أشكرك على ذلك على الأقل. كنت أظنني في نظرك شخصاً لا سبيل إلى إصلاحه».

رفعت رأسها بدهشة، وإذا بها ترى تغيراً خلف عينيه، وبريقاً لعاطفة خالصة بدت شبيهة بعاطفتها هي. ولكن سرعان ما زالت وتلاشت في لحظة، غير أنها أعطتها دفعاً لتطرح السؤال الذي لا يفارق ذهنها:

ـ هل أردت يوماً الزواج بي؟

سألته بحدةٍ باحثة في وجهه عن إجابة هامة. وأضافت:

ـ أم أن كل ما حدث ما كان إلا خداعاً منذ البدء؟

مرت لحظات طويلة مزعجة، ظنت خلالها أنه لن يتلطف ويتنازل ليجيب عن سؤالها. فإذا به يبتسم ابتسامةً خفيفةً مقيتة جعلت قلبها ينقبض في صدرها. وقال:

ـ لطالما اعتقدت أن الزواج لم يخلق لي أنا. لكنك كدت تحملينني على تبديل رأيي. فمنذ أن التقيت بك يا عزيزتي «إيندیا»، كنت متأكداً من شيءٍ واحد، هو أني أريدك إلى حد الجنون.. وما زلت أريدك فما زال هذا السحر الذي يجمعنا موجوداً.

تحطمت لحظة التفاهم والوئام الهشة التي دمرتها نبرة صوته وصراحته اللامبالية في كلامه. «السحر!» رددت «إيندیا» بتهكم تلك الكلمة وأضافت:

«هذا مبالغٌ فيه».

تشدق قائلاً بتكاسل: «ما من داعٍ للمبالغة، فذاكرتي صافية كل الصفاء. وصدقيني إن قلت إنها لا تحتاج إلى تجميل وتزيين، مما يجعل من عيشنا سوياً أكثر أهمية».

ـ لكنك لن تحصل على شيء سوى الذكريات.

ولاحظت بعد برهة أنه لا يزال يمسك بيديها. فانتزعتهما منه بفظاظة، وقالت:

ـ لن نعيش معاً! لأننا لم نتوصل بعد إلى حل أي...

قال إيدان بهدوء: «ما من شيء يتوجب حله. لقد سبق أن اعترفت بأنكم لا تستطيعون تحمل نفقات الانتقال إلى أي مكان آخر. وكلانا يعرف أن والدتك لا تستطيع تحمل المزيد من التوتر».

انتقل أثناء كلامه إلى إحدى النوافذ، وبدأ يتفحصها عن قرب. فقطّب حاجبيه قليلاً حين رأى الطلاء قد تقشر في بعض الأماكن كاشفاً الخشب تحته.

ـ ستقول لها؟

ـ فقط إن أجبرتني على ذلك.

جاء جوابه بسيطاً، لكنه احتوى على نبرةٍ شريرة ومهددة.

ـ وإن كنت لا تفكرين فيها، فماذا عن والدك؟ سألت في المستشفى هذا الصباح، وقالوا إنه يظهر علامات تدل على استيقاظه من الغيبوبة. فالأيام القليلة المقبلة ستكون حاسمة.

ـ سألت...! لكنهم لن يدلوا بهذا النوع من المعلومات لأي كان!

لكن «إيدان وولف» ليس أياً كان.

ـ هم أدلوا بها حين شرحت لهم أني خطيبك.

استدار ببطء وراقب وجه «إيندیا» الساخط بتسامح هادىء. ثم أضاف:

ـ وهذا ما أنوي أن أكونه في الأسابيع القليلة المقبلة.

ـ مستحيل!

تجاهل «إيدان» صرختها المختنقة بالغضب الواهن. وأجاب:

ـ أنا آسف، أيتها الأميرة. لكن هذه النقطة ليست مطروحة للنقاش. في مقابل تكرمي عليكم بالسماح لكم بالبقاء هنا، على الانتقال إلى المنزل والعيش فيه كجزء من العائلة.

ـ لا... إنه طلب مبالغ فيه.

ـ آه، بلى يا جميلتي. لن تجري الأمور إلا على هذا النحو. يجب أن تظن والدتك أننا تصالحنا... وأن الأمور عادت بيننا إلى سابق عهدها من جديد... وإلا، فإنها سترتاب بشيءٍ ما. إن كنت تريدين سقفاً يظللكم في الأسابيع المقبلة، عليك فعل شيء ما لتحصلي عليه. وعليك أن تتصرفي كما لو أنك سامحتني ونسيت كل شيء.

ـ لا أستطيع!

وتابع «إيدان» كما لو أنها لم تقل شيئاً: «وأن تقنعي الجميع أننا معاً من جديد.. لن تجدي صعوبة في لعب دور الخطيبة المحبة».

لم تكن قادرة على فعل ذلك! لكنها إن لم تفعل، فسيضعها «إيدان» هي ووالدتها وشقيقها خارجاً. كان قادراً على تنفيذ تهديده، وكانت تعرف ذلك.

صرخت: «لن أشاركك السرير نفسه!».

رأت حاجبه الداكن يرتفع في إجابة متهكمة ساخرة على غضبها. ثم قال بسخرية مهينة:

ـ أأقترح عليك الانتظار حتى يطلب منك ذلك؟ مهما يكن ظنك بي، حبيبتي، لم أضطر يوماً إلى الانحطاط إلى مستوى شراء النساء أو إجبارهنّ. فلديّ من الكبرياء ما يفوق ذلك.

شعرت «إيندیا» بقدرٍ من الراحة أشبه بموجة تحدثها صدمة كهربائية في رأسها... وارتفع ضغطها بشدة وسرعة بحيث لم تستطع برهة سوى الابتسام بسرور وهي تنظر إلى عينيه المحدقتين. أما عيناها فكانتا تشعان ببريقٍ منير.

لكن، سرعان ما تلاشى شعورها هذا حين رأت ملامح وجهه القاسية تقتم وتنقبض وعينيه تتحجران. وأضاف بابتسامة جمدت الدم في عروقها:

ـ ليس أني لا أعتبر ذلك ممكناً. في رأيي، إن السؤال هو «متى»، وليس «إذا»

وكل ما علي القيام به هو الانتظار.

انفجرت «إيندیا» غضباً قائلة: «إذن ستنتظر حتى تتجمد نار الجحيم!»

كانت عيناها تقدحان شرراً، وارتفع ذقنها في نفورٍ ساخط أمام ثقته بنفسه وشعوره بالرضا والظفر الخبيث. وأضافت: «يستحيل أن...»

قاطعها «إيدان» محذراً: «تعلمين ما يقولون إن ما من شيء مستحيل. حاذري أيتها الأميرة، فقد تندمين على ذلك».

بعد برهة، تحولت معالم وجهه وظهرت ابتسامة مستترة كان وقعها مميتاً على ما تبقى من رباطة جأشها المسحوقة.

- أما الآن وقد سويت المسألة، فسأذهب لإحضار حقائبي من السيارة. ثم، بإمكانك أن ترشديني إلى غرفتي.

- أحضرت حقائبك معك!

- نعم، بالتأكيد.

واتجه «إيدان» نحو الممر إلى حيث ركن سيارته. لكنه توقف واستدار إلى الخلف، وكانت ابتسامته تتسع شيئاً فشيئاً بتألق وروعة.

- لقد غادرت الفندق هذا الصباح.

- كنت واثقاً من نفسك إلى هذا الحد؟

بدأ جسدها يتجمّد لمجرد التفكير بذلك.

- آه! لا عزيزتي «إيندیا».

كان صوت «إيدان» منخفضاً ولطيفاً بشكل فجائي يدعو للقلق وتابع قائلاً: «لم أكن واثقاً من نفسي، حبيبتي، بل منك أنت. تعلمين عزيزتي، أنا على عكس والدك، لا أراهن أبداً إلاّ بحذرٍ شديد. ولا أضع أموالي قط على شيء إلا إن كان رابحاً بلا شك. وفي هذه الحالة، عرفت أني رابح بلا ريب».

***

٦ - فخ من حرير

- غاري! أين أنت؟

اللعنة على الفتى!

استشاطت «إيندیا» غضباً. أين اختفى إلى هذا الوقت؟ بدت دهشة حين بحثت عنه في غرفة نومه، ثم في غرفة الجلوس. وكادت تبحث عنه في الحديقة.. والآن لفت انتباهها صوت ضحكة آتية من الجزء الخلفي من المنزل. فاستدارت على الفور واتجهت نحو باب المطبخ.

- إذن، هنا كنت مختبئاً! لقد بحثت عنك في كل مكان! حقاً غاري...

تهالك صوتها في حنجرتها، وتوقفت قدماها فجأة وهي تلتفت إلى زاوية المنزل. وحين رأت ما رأته أمامها في نظرة خاطفة قلقة، أدركت ما كان عليها معرفته منذ البدء. غاري لم يكن وحده.

كان «إيدان» مع شقيقها، وقد أخذا استراحة قصيرة من الإشراف على أعمال التجديد والإصلاح التي بدأت في المنزل. قاما بوضع مرمى مؤقتاً على المرجة الخضراء الطويلة في فناء المنزل الخلفي. ومن الواضح أنهما كانا يلعبان بكرة القدم. كان جبيناهما وقميصاهما مبللين بالعرق نتيجة الجهد في حرارة شمس بعد الظهر. وكان بنطال «إيدان» الجينز وسروال شقيقها القصير ملطخين بالأوساخ والعشب.

ما إن ظهرت «إيندیا» حتى اندفع «غاري» بقوة ليمسك بخصمه، مما جعل «إيدان» يطير في الهواء بعد أن زلت قدمه. كما أن «غاري» فقد توازنه أيضاً، فوقعا أرضاً ضاحكين أمام «إيندیا». سقطت الكرة التي اندفعت بقوة في

الشجيرات خلف موقع أحد المرامي.

ـ هدف!

رفع «غاري» قبضته في حركة تعبر عن النصر.

ـ أبداً!

اعترض «إيدان» باحتجاج وقال: «لن أدعك تفلت بهذا! كانت هذه مخالفة صارخة لقواعد اللعبة... ألا توافقين أيتها الحكم؟».

مرّت بضع ثوان قبل أن تدرك «إيندیا» أن الكلام موجه إليها. كانت عينا «إيدان» الداكنتان الدافئتان تحدقان في وجهها بمرح وهو يحرر نفسه من «غاري». ووقف على رجليه جاذباً شقيقها إلى أعلى.

ـ أنا...

انقبض قلبها حين لاحظت كيف بدا «إيدان» في تلك اللحظة كأنه في مثل سن شقيقها، يشع وجهه بالمرح الذي أزال خطوطه القاسية الباردة التي كانت تطغى عادة عليه. كانت ابتسامته العريضة ممزوجة مع بريق أشعة الشمس على شعره الداكن وتورد اللون على وجنتيه، أشبه بسهم سدد مباشرة إلى قلبها.

ـ لا أعرف. لم أكن أنظر.

ـ كان هذا هدفاً!

كرر «غاري» هتافه، فضحك «إيدان». وعندما رأى وجهه الساخط، بعثر شعر الفتى الداكن بيده.

ـ في أحلامك عزيزي! لم أر قط في حياتي.. أو شعرت بالأحرى، بمخالفة متعمدة أكثر من هذه، وأنا متأكد من أن شقيقتك...

فقاطعته «إيندیا» بسرعة:

ـ لا تقحمني في هذا. قلت لك إني لم أكن أنظر.

هذا ليس صحيحاً، وقد أنبها ضميرها. لم تكن قادرة على رفع عينيها عن «إيدان».

كانت مدركة تماماً لوجود «إيدان» بالقرب منها، بقامته الطويلة الداكنة المدمرة في قميصه القطني الضيق وبنطاله الجينز. وحين تحرك فجأة، ابتعدت

بحركة غريزية، بالرغم من أنه لم يرفع سوى يد واحدة ليمس الشعر المبلل بالعرق ويرفعه عن جبينه.

ـ ماذا كنت تريدين؟

ـ أنا...

تلاشى كل شيء من ذهنها بشكل مربك لبرهة من الزمن. لم تتمكن من التنبه لما جعلها تأتي إلى هنا، فكل ما كانت تعيه هو طبقة رقيقة من العرق على وجنة «إيدان» وشعور ملح غمرها بمد يدها لمسحها بلطف بطرف إصبعها.

لكنه تحرك مرة أخرى، ممرراً ظاهر كفه على وجهه، فعاد مسار أفكارها إلى الحياة من جديد. فقالت لشقيقها:

ـ لقد وعدتني بمساعدتي في تحضير العشاء الليلة «غاري». هناك كمية من البطاطا بحاجة إلى تقشير.

ـ آه، لكن...!

كانت مدركة أن «إيدان» ما زال يراقبها. خافت من أن تظهر مشاعرها على وجهها، لذلك تحول صوتها إلى نبرة لاذعة أكثر مما أرادت.

ـ الطعام لا يطهو نفسه. لذلك، دعنا نراك في المطبخ ما إن تنظف نفسك.

ارتاحت لهروبها، ولعودتها إلى المطبخ، وبذلت ما بوسعها لاستعادة كل رباطة الجأش التي تمتلكها، وإعادة تنفسها إلى حالته الطبيعية... إن أي أحد كان ليظن أنها هي من كانت تلعب بكرة القدم.

هل ستتمكن يوماً من الاعتياد على وجود «إيدان» في منزلها؟ منزله هو، كما صححت لنفسها الخطأ بسخط. لقد مضى خمسة أيام على انتقاله إلى هنا، وهي حتى الآن أبعد ما يكون عن تقبل ذلك.

انقلب مزاجها كلياً فضربت بعنف الغطاء على المقلاة، ورمت بها في الفرن بقوة أحدثت ضجة كبيرة. ويئست من انتظار «غاري» وكادت تبدأ بتحضير البطاطا بنفسها حين فتح الباب أخيراً خلفها.

ـ أخيراً! ماذا كنت تفعل؟

تهادى إليها صوت لم يكن إطلاقاً صوت «غاري»:

ـ قلت ما إن تنظف نفسك.

استدارت بذهول:

ـ «إيدان»! لكني كنت أتوقع...

أكمل «إيدان» حين عجزت هي عن إنهاء الجملة:

ـ غاري. أعرف ذلك. لكنه أراد أن يشاهد شيئاً على التلفاز، فقلت إني سأقوم بدور الطاهي بدلاً منه.

ـ لكنك...

إن كانت قد شعرت بالاضطراب والارتباك من قبل، فإن الأمور ازدادت سوءاً الآن. من الواضح أن «إيدان» أتى إلى المطبخ للتو من الحمام مباشرة. كان شعره الداكن لا يزال رطباً ومرفوعاً عن وجهه إلى الوراء. بدا نضراً ونشطاً ومتنعشاً، وممتلئاً بالحيوية والحياة.

جعل قميصه الأبيض المتغضن الذي ارتداه مع بنطال نظيف من الجينز، «إينديا» تدرك بانزعاج أن ثوبها الأخضر البسيط كان أسوأ ما يمكن ارتداؤه. كما أن شعرها الأسود المرفوع بإهمال، وماكياجها الذي اقتصر على القليل من المسكرة، جعلاها تشعر بنفسها وضيعة رثة المظهر، عديمة الفتنة والسحر.

ـ أنت تشعرين حقاً أنك مظلومة، أليس كذلك؟

فوجئت «إينديا» بنبرة صوته التي بدت في الواقع مرحة، وأضاف:

ـ حسناً، إنها غلطتك أنت، سيدتي. إن كنت بحاجة للمساعدة، ما كان عليك إلا أن تطلبي ذلك. تنحي جانباً.

سحب مقشرة البطاطا من قبضتها، وأزاحها جانباً بلطف بيديه القويتين ليأخذ مكانها عند المغسلة.

ـ لا، أعني، لا تستطيع...

ـ أنا قادر جداً على تقشير بعض حبات البطاطا، «إينديا».

ـ أنا متأكدة من قدرتك، لكن...

ـ لكن؟.

حثها «إيدان» على الكلام بعد أن اختنقت الكلمات في حنجرتها بحيث

عجزت عن إخراجها بالقوة. كان قريباً منها بحيث أنه حين تحرك، التقطت حاستها عطراً خفيفاً مميزاً، ممتزجاً برائحة جسمه النظيف.

ـ ليس عليك تقديم المساعدة.

ثم تابعت بعد أن استجمعت قوتها وعزيمتها:

ـ ففي النهاية، أنت تملك المنزل الآن.

ـ وانظري كيف تختنق حنجرتك لاعترافك بذلك.

تحول صوت «إيدان» فجأة إلى نبرة قاسية. وأدركت بعدما تلاشى صوته كلياً، أن معالم وجهه كانت مختلفة كلياً منذ برهة فقط، معالم استبدلت بازدراء وبرود.

ـ قولي لي...

وبشكل غير متوقع، عادت نبرة صوته لتتحول إلى اللامبالاة السابقة. لكن يديه اللتين تقشران البطاطا بسرعة وإتقان فظ، خانتاه وأظهرتا حقيقة مشاعره الداخلية.

ـ هل جعلتك تشعرين، أنت أو أي فرد آخر من عائلتك، بأنكم غير مرغوب بكم هنا؟ وهل أظهرت أني أتوقع أي شيء على الإطلاق في مقابل بقائكم في المنزل؟

ـ لا.

لم تستطع التفوه بكلمة أخرى. فمنذ أن انتقل إلى المنزل، كان «إيدان» متكتماً... على الأقل في ما يخص ملكيته للمنزل. وعلمت أن والدتها لم تشك بالحقيقة، لكن «إينديا» كانت تعرف حق المعرفة هذه الدوامة السوداء المظلمة، وتشعر بها تلتف حول رجليها مهددة بانهيارها.

في بداية الأسبوع، حين عادت والدتها من المستشفى ووجدتهما معاً شعرت بهذه الدوامة تضغط عليها كالرمال المتحركة، تمتص قدميها طوال الفترة التي كانت تقف فيها إلى جانب «إيدان». واضطرت «إينديا» الاستماع إلى التفسير الذي قدمه «إيدان» لوجوده في المنزل، وأدركت أن سكوتها كان بدعم كذبه.

ـ حضرت إلى المنطقة بداعي الأعمال.

هذا ما قاله. ولو أنها لم تكن تعلم تحديداً ماهية تلك «الأعمال»، لاعتقدت

هي أيضاً أن ظهوره في ويستبوري كان محض صدفة. تابع قائلاً:

- وسمعت بمرض زوجك. من الطبيعي أني فوجئت وشعرت بالقلق. لذا، اتصلت بالمنزل لأعرف إن كان هناك من شيء أستطيع القيام به للمساعدة. وما إن رأيت «إينديا» مرة أخرى، حتى أدركت الخطأ الفادح الذي ارتكبته في السنة الماضية...

تذكرت «إينديا» بمرارة كيف أن والدتها صدقت كل شيء. ابتلعت الطعم وكل الإضافات التي تلته واقتنعت بأن «إيدان» نادم على ما قد حصل.

- حدث شجار سخيف بيننا؛ مشاحنة بين عاشقين. تعلمين هذا النوع من الأمور... كيف أن التوتر الذي يسبق الزفاف يتسبب بالمشاكل التي تتخطى كل الحدود، بحيث لا تحتاج إلا إلى قشة صغيرة إضافية لينهار كل شيء. لكن «إينديا» قد غفرت لي... أليس كذلك حبيبتي؟

لم يلكمها بشدة على أضلاعها عند السؤال الأخير، لكنه قد يكون فعل. وكانت عينا والدتها المحدّقتان في وجهها، قد شع منهما البريق، في أول إشارة للأمل فيهما منذ أسابيع. فعلمت أن ما من خيار آخر أمامها سوى الإيماء برأسها بحماس.

شعرت «إينديا» بخيانتها حين اقتربت «ماربون مارشنت» وأمسكت بيديها، قائلة: «وهل عادت المياه إلى مجاريها؟»

وبدا من ارتعاشة صوتها كم يعني لها هذا الأمر. وأضافت:

- هل يعني هذا أنكما مخطوبان، وأن...؟

قاطعها «إيدان» بلطف وروية شاعراً بأن «إينديا» لا تستطيع سوى الموافقة على ذلك.

- آه! حسناً، لا نريد استعجال الأمور. فقد حدث كل شيء بشكل مفاجيء وغير متوقع على الإطلاق. نريد أن نأخذ الأمور بروية وحذر قبل أن نرتبط بأي شيء. ففي النهاية، أظن أن هذا كان السبب في إفساد الأمور في المرة السابقة. فقد استعجلنا الأحداث دون أن نمهل أنفسنا بعض الوقت ليتعرف أحدنا إلى الآخر عن كثب. لذا، إن كنت لا تمانعين، فإننا نفضل إبقاء الأمر بيننا لبعض الوقت، على

الأقل حتى نتأكد من مشاعرنا.

ابتلعت والدتها هذا الطعم أيضاً، ابتلعته كلياً. وصدقت أكثر حين لعب «إيدان» مرة أخرى دور الصهر العتيد، وعرض أن يضطلع بمهام والدها في العمل، ويهتم بالإصلاحات في المنزل التي باتت ملحة جداً.

كان هذا ما استطاعت «إينديا» القيام به لكي لا تصاب بالغثيان، أو تقوم بأي رد فعل يفضح خديعة «إيدان» الفظة. فقد شعرت بمعدتها تضطرب حين رأت كيف تقبل «إيدان» بتواضع زائف امتنان «ماربون» الصادر من القلب.

اعترفت «إينديا»:

- لا، لم تجعلنا نشعر بأننا أشخاص غير مرغوب فيهم. لكن ما تقوله أو تفعله لا أهمية له ما دمت أعرف الحقيقة. فكلانا يعرف أن كل هذا ما هو سوى نسج من الخيال. وفي يوم من الأيام، حين تستدعي مصالحك أو مخططاتك غير ذلك، ستنزع هذا القناع المخادع من الابتسامات، وتدمر سعادة والدتي كلياً.

حدجها «إيدان» بنظرة مقلقة، لكنها بذلت جهداً كبيراً لكي تتجاهلها، وأجبرت نفسها على مواصلة الكلام:

- أعني، كن صريحاً. كم بقي لنا من الوقت قبل أن...

قاطعها «إيدان»:

- كم بقي من الوقت؟

بدا كأنه يفكر في إجابة عن السؤال، بالرغم من أن «إينديا» كانت متأكدة من معرفته الكلية للجواب، وأضاف:

- حسناً، هذا يعود إليك حقاً.

- إليَّ أنا؟

أومأ برأسه ببرودة وهو يرمي بقطعة البطاطا في المقلاة إلى جانب الخضار الباقية التي سبق أن حضرتها. وأضاف:

- طالما تقومين بدورك على أحسن وجه، لن نضطر إلى كشف الحقيقة أمام والدتك. لكن إن بدأت يوماً بالتشكيك في صحة ما تعتقده بقوة...

لم يكمل جملته التي حوت تهديداً واضحاً. لكن «إينديا» علمت أن لا حاجة له

لإكمالها، فقالت:

- وأظنك تعني بالقيام بدوري على أكمل وجه، أي يجب أن أكون... ماذا؟ أكثر إقناعاً؟ أكثر... مغازلة؟

لم يعجبها البريق الذي أضاء عينيه، والطريقة التي استدار بها فمه في استجابة لذلك.

قال بتهكم:

- مزيد من الدفء لن يذهب سدى. أعني أن أحداً لن يصدق أننا تصالحنا إن استمريت بالقفز كالهرة المذعورة كلما دخلت إلى الغرفة، أو بالهروب والاختباء في المطبخ كل مساء...

اعترضت «إيندیا» على كلامه:

- أنا لا أختبىء!

ورن جرس الفرن خلفها، فأعطاها العذر لتبتعد وتتحقق من محتويات الكسرولة بداخله. وحين استدارت، أملت أن تبرر الحرارة المتصاعدة من الفرن احمرار وجنتيها والبريق المتألق في عينيها.

سألها «إيدان» وهو ينهي آخر قطعة بطاطا ويضيفها إلى الأخريات: «ألا تعتقدين أننا سنبدو أكثر إقناعاً إن قمنا بالأشياء معاً؟».

- معاً؟

لم يكن المشهد أمراً تستطيع مواجهته وتقبله بأي درجة من رباطة الجأش. وأضافت:

- لا أستطيع الفرار منك. إن دخلت إلى الردهة، أجدك هناك، على أحد الكراسي مع بعض الأوراق...

كان وجوده هناك، أو على الطاولة للمشاركة في الوجبات العائلية، يذكرها باستمرار وبمرارة بالأحلام التي راودتها في السنة الماضية. لقد تخيلت «إيدان» مرّات عديدة في هذا المشهد نفسه في منزلها، لكن كزوج لها وليس كدخيل، أو كأحق حقود متنقم قام بالاستيلاء على المنزل. إن التفكير في أحلامها التي تدمرت، يسبب لها آلاماً تفطر قلبها باستمرار.

- ... أو في المكتبة منكباً على مشاريعك وعلى تقدير أسعار التعديلات التي بدأت بها.

أجابها «إيدان» بلا مبالاة غريبة:

- ظننت أن ذلك قد يهمك. لم أشأ أن أجرح مشاعرك. لذا قررت أن أشركك في أي استشارة بشأن التصليحات.

خطر «لإيندیا» بمرارة أنها لن تراها ربما بعد إتمامها. وهذا ما أضاف إلى جراحها المريرة المؤلمة جراحاً أخرى، فقالت بصرامة:

- إنه منزلك.

- لكنك تتمتعين بذوق رائع. وتعرفين ما هي اللمسات الضرورية لتحويل منزل إلى بيت، وهو أمر لا أعرف عنه سوى القليل.

حين رأت المقلاة قد فرغت من البطاطا المعدة للتقشير، لجأت إلى اعتماد نوع من اللباقة الخرقاء:

- حسناً، شكراً لمساعدتك هذه الليلة... أنا ممتنة لك حقاً.

صمتت جزعة حين رمى «إيدان» المقشرة في الحوض بقوة منذرة بالسوء. وقال والشرر يتطاير بغضب من عينيه:

- لا أريد امتنانك لأي شيء!

لكنه ما لبث أن تمالك نفسه في لحظة، وأضاف بخفة قطعت أنفاسها:

- وصدقيني، إن تقشير بضع قطع من البطاطا لن يستنفد كل طاقاتي ومهاراتي المطبخية.

أثار ذلك فضول «إيندیا» رغماً عنها:

- هل تملك أياً منها؟ أعني المهارات المطبخية؟

- يجدر بك أن تصدقي ذلك. في الواقع، لِمَ لا تنسي أمر تحضير العشاء غداً مساءً وتدعي هذه المهمة لي؟

وأضاف بنبرة لاذعة حين رأى تعابير وجهها وأساء تفسيرها:

- لا داعي للظهور بمظهر المشكك، أيتها الأميرة، فقد أفاجئك حقاً.

اعترفت «إيندیا» بصدق: لقد فاجأتني فعلاً.

تذكرت «إيندیا» من خلال حوارهما القصير أنها في الواقع لم تعرف سوى القليل عن «إيدان» في السابق. الحقيقة أنها عرفت أكثر بقليل من كل من كان يقرأ الجرائد المحلية. وبالرغم من ذلك، كانت واثقة من أن سعادتها ستتحقق معه.

أثبت لها ذلك أن الحب أعمى، هذا ما قالته لنفسها بشيء من المرارة. وقد أعمى الحب بصرها عن الحقيقة إلى يوم زفافها حين استفاقت للمرة الأخيرة.

لكنها رأته الآن بشكل واضح وثاقب كما لم يسبق لها أن رأته من قبل. ما رأته وأدركته جعل جسدها يقشعر من الخوف. كان «الإيدان وولف» قطعاً الجاذب المدمر نفسه كما من قبل. لكن هذا المظهر الخارجي المسيطر كان يخفي وراءه قلباً فظاً وبارداً كحجر الكهرمان الأسود المصقول. كان «لون وولف» نفسه، البالغ القسوة متربصاً للانقضاض على كل من يظهر أنه أقل منه قوة.

لكنه كان أيضاً الرجل الذي استمتع بلعب كرة القدم بسعادة مع شقيقها الصغير. والرجل الذي قدم يد المساعدة في مهمة مطبخية دون أي اعتبار للحفاظ على صورة ذكورية.

ـ بإمكانك إعداد الطعام؟

ـ ليس هذا فقط، بل الواقع أني أستمتع به.

لكن انتباهها لم يكن مركزاً كلياً على كلماته. فهي لم تلحظ أنه كان قريباً منها إلى هذا الحد كل الوقت، ولم تعرف ما إذا اقترب منها فجأة في اللحظات القليلة السابقة...

حجب جسده الطويل النحيل الضوء الآتي من النافذة، وحجب معه الدفء أيضاً. وشعرت فجأة بالبرد حين سيطر عليها على نحو مقلق. وبدا طول قامته وعرضها مخيفين فجف فمها وارتدت بصعوبة وراحت تنقل رجليها بتثاقل.

ـ كما أني واثق كل الثقة بأن اللازانيا التي اعدها لا مثيل لها.

ـ ثري ووسيم وموهوب أيضاً! هذا الرجل يملك كل شيء!

لم تكد «إيندیا» تدرك ما قالته، حتى بدا أن التواصل الحقيقي كان جارياً على نحو أكثر أهمية. وبطريقة لا إرادية شعرت بكيانها يتفاعل مع وجوده على مقربة منها. فراح قلبها يترنح على نحو متقلب وغير منتظم، مما جعل تنفسها يستحيل

أجش ومتسارعاً.

ـ أنتَ فعلاً صيد موفق. ستكون زوجاً رائعاً لإحدى النساء المحظوظات.

نبهتها نظرته الفورية الباردة التي حدجها بها إلى الخطأ الذي ارتكبته. فشهقت بحدة من التوتر بانتظار ردة فعله المحتومة.

* * *

لم تنتظر «إيندیا» طويلاً.

ـ هذا لا يدخل ضمن البرنامج.

قطع جوابه الحاسم كلام «إيندیا» بحدة. فانتزعها بعنف من أجواء أفكارها التي كانت غارقة فيها.

في اللحظة نفسها، خمد ذلك التفاعل المحرق الذي تأجج بينهما، كأن أحداً ما سكب عليهما ماء مثلجاً. فدمدمت قائلة:

ـ المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين؟

هذا لا يعني أبداً أنه قد تعرض للدغ. فقد كان طوال الوقت يتحكم بكل تصرفاته، ويخطط لتحركاته بحذر مسبق، كلاعب شطرنج محترف.

ـ لو أعراني الأمر يوماً، فإن ندوبي التي ما زلت أشعر بها كفيلة بتحذيري بالتخلي عن الفكرة.

سخرت «إيندیا» من ذلك مرددة:

ـ ندوب! إن الخدوش البسيطة التي أصابت كرامتك، من الصعب وصفها بالجراح.

وذلك بعكس الألم القاتل الذي سببه هو لها.

أجابها بسخرية:

ـ حسناً، يجب أن تعلمي.

وأضاف:

ـ والآن، ماذا علينا أن نفعل بعد؟

ـ ماذا؟

كان من الصعب على «إيندیا» أن تتكيف معَ تبديله المفاجيء لمزاجه

وللموضوع:

ـ آه، لم يبق سوى ترتيب المائدة. لكني أستطيع تدبر ذلك.

ووقف حيث كان متكئاً على المغسلة. ومشى إلى الخزانة الكبيرة في الجهة المقابلة من الغرفة. فسحب الجارور الخاص بالسكاكين وبدأ بعد الشوك والسكاكين ليضعها على الصينية الجاهزة لهذا الغرض.

سألته: إذاً، هل كان هناك أحد ما...؟

ـ منذ قصتي معك؟

هز «إيدان» كتفيه بشكل معبر، ثم أضاف: أبداً.

أجابته «إينديا» بنزق:

ـ ظننتك ستجد ذلك فرصة مؤاتية لتعود إلى حياتك القديمة.

كان ذلك في النهاية ما توقعته. كانت تخشى الألم الذي قد تسببه رؤية صورته مرة أخرى في الصحف وهو يتأبط ذراع إحدى العارضات أو النجمات الصاعدات الحسناوات، وأذهلها بالفعل أن لا يحدث شيء من ذلك.

أبقى «إيدان» انتباهه مركزاً على ما كان يقوم به، وقال:

ـ العديد من النساء؟ لم لا؟ من السهل أن نحافظ على سمعة زير نساء، بعكس أسطورة الرجل المتزوج السعيد.

ـ سهل لمن؟ لك أنت ربما. لكن ماذا عن النساء اللواتي استغليتهن؟

أدركت بعد فوات الأوان أن سؤالها الأخير قد يكون له مفعول الديناميت. فبما أنها ادعت علاقتها «بجيم» لتحتمي خلفها، كان من الواضح حتماً «لإيدان» أن صديقها المزعوم لم يكن له دور يذكر في حياتها في الأيام الأخيرة الماضية. لكنه لم يعلق على ذلك بعد، وإن لم تلتزم جانب الحذر سريعاً، فإن عليها التفكير ملياً بغية تبرير غيابه.

ـ هن يعطين بقدر ما يأخذن. وأنتِ أفضل من يتكلم عن الاستغلال.

ـ أنا لم...

ـ لم تفعلي ماذا؟

رفع «إيدان» رأسه فجأة وحدق إلى وجهها بنوع جديد من الشدة المزعجة.

وأضاف:

ـ لم تعلمي أني ثري؟ لم تري أني ما كنت تبحثين عنه تماماً؟ لم...؟

ـ حسناً، بلى!

قاطعته «إينديا» بحدة بعد أن بلغت حداً فاق احتمالها:

ـ بلى! بلى! بلى!.

لم تكن تعلم جيداً ما الذي اعترفت به، لكنها لم تأبه. أرادت فقط أن توقف ذاك الصوت المتهكم، ووضع حد لتوبيخه الساخر.

وأدركت الآن، وهي غير مستعدة لذلك أبداً، ولا تعرف كيف تتصرف حياله، أنها نسيت شيئاً ما، شيئاً استبعدته عن ذهنها... كان «إيدان» سعيداً معها. لقد بدا كأنه يستعجل زواجهما بلذة وسعادة كادت تعادل ما شعرت به. ما الذي حدث إذاً ليحوله إلى ذلك الوحش القاسي الذي رأته في يوم زفافها؟

فقالت بهدوء:

ـ نعم، هذا ما قلته، أردت في البدء...

وخانتها أعصابها حين ترك «إيدان» فجأة العمل الذي كان يقوم به، واتجه نحوها، فظنت أنه سيأخذها فعلاً بين ذراعيه. لكنه في اللحظة الأخيرة، تجاوزها ليأخذ كأساً عن الرف خلف رأسها.

فتح الماء بعنف غير مبرر وملأ الكأس حتى فاضت ثم شرب جرعتين كبيرتين. وقال أخيراً:

ـ إذاً، ما الذي حدث حبيبتي؟ لا تحاولي الادعاء أنك وقعت في غرامي بحيث لم تعد تعنيك كل الأموال، وأنك لم تهتمي إلا بي أنا ليس أكثر!

ـ هل تصدقني إن قلت نعم؟

نظرت بعمق إلى هاتين العينين الداكنتين، داعية إياه إلى تصديقها، رأت التبدل في ملامحه، ووميض شيء ما في عينيه قبل أن تضيقا بحدة. حرك رأسه قليلاً وهو يضع الكأس ثانية بهدوء كما لو أنه يفكر فعلاً في الإجابة، فأضاءت شعلة خفيفة من الأمل في قلبها. فلربما لم يضع كل شيء، ربما..

ـ إيدان، أرجوك...

اندفعت نحوه وأمسكت يده تقبض عليها بشدة، راغبة في أن يصدق ما كانت تقوله.

ـ لا.

كان جوابه مختصراً وقاسياً... كما أن الطريقة التي سحب بها يده بهدوء من يدها، عبرت بفصاحة ووضوح عما يدور في ذهنه، فقد اكتفى بالتعبير ببساطة عن ازدرائه برفع أصابعها عن أصابعه بلا مبالاة، كما لو كانت طفلة مزعجة تتشبث به بشكل مزعج.

ـ بالنسبة إلى امرأة ادعت أنها واقعة في الحب، أجد أنك عثرت على بديل لي بسرعة فائقة. لذا، عزيزتي، لا أصدق كلمة مما قلت.

ـ إذن فلم أعنِ ما قلته.

لم تعلم من أينَ أتتها القوة للردّ عليه بهذا الشكل. لم تكد تسمع صوتها بسبب الطنين الذي أصم أذنيها، والذي سببه رفضه. لكن ما سما إليه تفكيرها كان أمراً مختلفاً.

سألته إن كان سيصدقها إن هي قالت إنها أحبته، وهكذا كانت تظن هي أيضاً... كانت تظن أنها أحبته، في الماضي. لقد شعرت بتلك العاطفة في يوم من الأيام وظنت أنها دمرت كلياً بسبب تصرفه الأرعن القاسي في يوم زفافهما. والآن ما إن تكلمت حتى وعت الحقيقة. لقد عرفتها وتمكنت من إنكارها، بقدر ما أرادت ذلك. فمنذ رفض «إيدان» العلني لها، أقنعت نفسها بأنها كرهته وبأن الكُره منحها القوة والعزم لتخطي المحنة. ثم عاد فظهر مجدداً، فأيقظ كل تلك الأحاسيس القديمة مجدداً.

إنها لم تكرهه.. لأن الشعور الوحيد الذي تمكنت من الإحساس به نحو «إيدان» كان الحب الذي أفقدها توازنها منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها. ولم تتمكن قط من استعادة توازنها ورشدها منذ ذلك الحين. وقد عرفت خطورة الأمر، وأنه عملياً يشبه الانتحار. ولو علم ذلك، لاستغل الوضع بسرعة ودون رأفة.

وبسرعة وخفة يدفعهما الذعر، غمر «إيندبا» الشعور بالدفاع عن النفس.

فقد أوشكت أن تقر بمشاعرها بتهور. ولو فعلت ذلك، لكانت كمن تسلم له قلبها. وما إن يمتلكه حتى كان «إيدان» سيعمد إلى قذفه جانباً باحتقار فظ، دون أن يبالي أو يكترث بوقوعه. لقد فعل ذلك سابقاً، فما الذي يمنعه الآن من معاودة الكرة؟

تبدلت ملامحها، وارتسمت على وجهها ابتسامة مشرقة، راجية أن تخفي عبرها الموت البطيء الذي كانت تشعر به في أعماقها. فرددت وهي تنظر مباشرة إلى وجهه الداكن:

ـ كنت أختبرك فحسب! أردت التأكد من عدم وجود أي سوء تفاهم بيننا. ففي النهاية، لم أرد منك أن تأخذ انطباعاً خاطئاً.

ـ أنت بالتأكيد لا تريدين ذلك.

كان صوت «إيدان» متجهماً وقاسياً، تماماً كالملامح التي ارتسمت على وجهه.

لاحظت «إيندبا» بشيء من الصدمة أنها تستطيع رؤية الفرق بين الحقد البارد في عينيه وبين شعور آخر كان يتجلى فيهما منذ ثوان قليلة فقط. لن تكون من الغباء بحيث تدعو ذلك الشعور بالدفء، لكنه كان موجوداً، وقد تلاشى الآن.

ـ لقد اتفقنا على ذلك إذن. والآن، إن كنت لا تمانع...

كانت الابتسامة التي تسلحت بها مزيفة. بدا في وجه «إيدان» العابس المتجهم أن ذلك لم يخدعه للحظة.

ـ حان الوقت لأضع هذه على النار، وإلا فإنَّ أحداً لن يأكل الليلة قبل التاسعة مساء.

كان يراقبها بصمت متحجر وهي تملأ القدر بالماء وتضعها على الفرن لتسخن. وكادت تشعر بلهيب نظراته الجليدية تحرق ظهرها، فاضطرت لبذل جهد للتركيز على عملها.

ـ أنت سعيد إذن بلعب دور زير النساء، أليس كذلك؟

لم تجد الجرأة على الكلام إلا لأنها كانت تدير له ظهرها، فلو أنها اضطرت للنظر في وجهه، ولاحتمال تلك القوة الفظة في تصرفاته العدائية، لكانت انهارت

أشلاء صغيرة على الأرض.

جاء جواب «إيدان» بصوت فظ فيه مزيج من اللعنة والدمدمة. فقررت «إينديا» اعتباره نوعاً من الموافقة، وتابعت باستخفاف حذر مزيف:

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟

- أعني، إلى متى ستستطيع الاحتفاظ بهذه السمعة كزير نساء؟

أجابها «إيدان» بإيجاز:

- إلى الوقت الذي يتطلبه ذلك.

- لا يعتبر ذلك العمل تصرفاً مسؤولاً.

- آه! أنا أتحمل مسؤولياتي بجد تام.

هذا ما تصدقه «إينديا». فلم يقم «إيدان» قط بأي حركة لم يسبق له أن فكر فيها ملياً. أو لم يخطط بهذه الطريقة لرفضه النهائي لها، بحيث يجعل الوقع أشد وأبلغ إذلالاً؟

- هذا جيد الآن، وأنت لا تبلغ من العمر سوى خمس وثلاثين سنة...

بعد أن أنهت عملها، وجدت نفسها الآن مجبرة على الالتفات نحوه. كان من المستحيل بالنسبة إليها تجاهل التناقض بين ملامح وجهه الساخرة المترقبة وبين وقفته الهادئة المظهر، - حيث كان متكئاً إلى المغسلة واضعاً يديه في جيبيه.

- لكنك في أحد الأيام ستطعن في السن. فماذا يحدث حينها، حين... حين لا تعود قادراً على...؟

قاطعها «إيدان» بنهكم حين ترددت في إكمال كلامها.

- جذب النساء؟ - سأفكر في هذا في حينه.

أدركت بألم أنّ سبب تردّدها لم يكن البحث عن الكلمات المناسبة بل كان ناتجاً عن ردة فعل جسدية لم تستطع التحكم بها. ولفتت انتباهها وقفته التي أبرزت قده القوي وساقيه الطويلتين، وبريق شعره الداكن اللامع تحت أشعة شمس المساء المتسللة عبر النافذة.

خطر لها بمرارة أنه حتماً ليس بحاجة لأن يقلق. فالرجال أمثال «إيدان» لا

يفقدون جاذبيتهم حين يتقدم بهم العمر. وجل ما يحدث، ظهور بعض التجاعيد القليلة أو الشعر الأبيض، مما يساعد في إضفاء لمسة من النضوج على جاذبية مهلكة.

- لكن، عليك الاعتراف بأن صورة كهل فاسق يتأبط ذراع إحدى الحسناوات الشابات التي تصلح أن تكون حفيدة له، ليست بالصورة الجذابة حقاً. وإن لم تجد نفسك غارقاً في الوحدة في سن متقدمة، فماذا عن الأولاد؟

خرجت الكلمة الأخيرة كالصرير تقريباً بعد أن جفت حنجرتها مرة أخرى... لكن هذه المرة لسبب مختلف تماماً. فإن التبدل الذي طرأ في عيني «إيدان» وهي تتكلم قد أرعبها بالفعل.

- ماذا عنهم؟

لم ينجح السؤال الاعتيادي في ظاهره. فقد كانت نبرة «إيدان» متناقضة كل التناقض مع ما استطاعت قراءته على وجهه.

- ألا تريد أولاداً؟

- أردت ذلك مرة، وغيرت رأيي.

- لكنك...

- هذه القدر نوشك أن تغلي.

أقفل الموضوع وانتهى النقاش، ولم يكن مضطراً لقول ذلك. لقد ظهرت مشاعره بوضوح بعدما انطبعت على كل جزء من جسده حين وقف بسرعة وذهب لتعديل الحرارة تحت المياه.

لقد أخبرتني كم ترغب في الأولاد. هذا ما كادت تقوله. اثنان على الأقل. وربما ثلاثة، وبأسرع وقت ممكن. ألم تمض ساعات طوال تحلم في اليقظة بهؤلاء الأولاد؟ صبيان أو بنات بشعرهم الداكن، مزيج منها ومن «إيدان». لقد تخيلتهم هنا، في هذا المنزل حيث ترعرعت. في منزل صنع خصيصاً ليكون عائلياً.

انتابتها فجأة رغبة عارمة في البقاء وحدها.

- ربما تبلغ أمي و «غاري» أن العشاء سيكون جاهزاً في نحو عشر دقائق.

صلت لكي لا يبدو كلامها كأمر بالانصراف، وحاولت أن يبدو اعتيادياً

بسيطاً. لكنها حين رفعت خصلة من الشعر إلى الوراء خلف أذنها، استدار «إيدان» ليواجهها فتجمدت، ولم تكمل ما بدأته حين رأت النظرة في عينيه.

- ماذا؟ أهناك لطخة ما على أنفي؟

بدأت أصابعها تلقائياً بالتحقق من ذلك. وحين هزَّ «إيدان» رأسه بصمت تجمدت مرة اخرى، فقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غير متوقعة. لم يكن هناك أي دفء في وجهه، لكن ابتسامته جعلت أصابع قدميها تلتف في تجاوب.

- لا؟ حسناً، هل سمعت ما قلته؟

- آه! نعم سمعت.

- إذن...

وامتد صوتها بينما كان «إيدان» يهز رأسه.

- بعد دقيقة.

أرسل صوته المنخفض الأبح شرارات إلى جسدها. وقالت: «لكن...».

- «إيندیا»، حبيبتي، سأخبر والدتك بأي شيء تريدينه بعد دقيقة. لكن قبل ذلك، لدينا أمر يجب إصلاحه.

ابتلعت «إيندیا» ريقها بصعوبة وقالت:

أومأ «إيدان» برأسه ببطء. ولم تلحظ «إيندیا» اقترابه منها بضع خطوات إلا حين أمسك يدها ورفعها برفق عن وجهها. ودنا منها بشكل مقلق، ثم همس لها برقة غير متوقعة زادت من اضطرابها:

- أنت فقط لا تبدين كما يجب.

- أهذا صحيح؟

عجزت «إيندیا» عن التفكير بشكل سوي. ولم يستطع ذهنها التركيز على كلامه أو على الكلام الذي أرادت قوله. بل كان مركزاً في المقابل على الشعور المؤلم الذي بعثته في نفسها أصابعه الدافئة القوية التي أمسكت أصابعها، ورائحة النظافة المنبعثة منه.

حين بدا اضطرابها على ملامح وجهها المقطب، ابتسم ثانية، فقفز قلبها في استجابة عفوية. وقال:

- «إيندیا» نحن هنا منذ ما يقارب الساعة.

كان صوته بطيئاً واضحاً وهادئاً كما لو كان يشرح أحد المفاهيم الصعبة لولد ليس حاد الذكاء. وأضاف:

- وأنا متأكد من أن والدتك ابتعدت عمداً عن طريقنا، لتدعنا وحدنا. ومن المفترض أننا تصالحنا حديثاً. لكن أحداً لن يصدق ذلك للحظة إذا ما خرجت من المطبخ بالمظهر الذي تبدين فيه الآن.

ازداد تجهم وجهها وقالت: «الذي أبدو...؟ كيف تريدني أن أبدو؟»

أدركت خطأها بعد برهة، لكنها كانت مدة كافية «لإيدان» الذي تحرك ثانية مقترباً منها أكثر فأكثر. قبضت يداه على ذراعيها ليجذبها نحوه. وقبل أن تستجمع أفكارها، وجدت نفسها ملتصقة به. فشعرت بخفقات قلبه الثقيلة عبر نسيج قميصه القطني، فدمدم بصوت أبح: «هكذا».

وخفق قلبها مرات عديدة حين انخفض رأسه الداكن بحركة سريعة معانقاً إياها بشغف. هام رأسها ووجدت نفسها تطلب السند في قوته. واستسلمت خائرة القوى.

لم تدرِ كم مرَّ من الوقت، دقائق طويلة أم بضع ثوان... فقد تلاشى من ذهنها الوقت وإدراكها بما يحيط بها. وعرفت فقط أن «إيدان» هنا، وأنها بين ذراعيه، وهو المكان الوحيد الذي ترغب في التواجد فيه.

لكنه أخيراً رفع رأسه وحررها لتستعيد أنفاسها الضائعة. فترنحت قليلاً حين أفلتها قائلاً: «الآن...».

ونظر إليها ببريق من الانتصار انعكس في عمق عينيه. لم تتمكن «إيندیا» سوى من التحديق إليه بدورها ولكنها أدركت أن الدم الذي صبغ وجهها كان ينحسر بسرعة، تاركاً وجنتيها شاحبتين تحت عينيها الداكنتين المحدقتين من الصدمة.

- الآن تبدين في أحسن حال. الآن لن تتساءل والدتك عما كنت تفعلينه، فيكفي أن تنظر إلى وجهك لتعلم تماماً ما الذي كان يشغلك.

اتسعت ابتسامته المنتصرة بشكل بغيض قبل أن يرتد على عقبيه ويخرج من

ـ السؤال هو متى وليس إذا.

تسللت كلمات «إيدان» هذه التي قالها منذ أسبوع مضى إلى رأسها بشكل لا إرادي. «وكل ما علي فعله هو الانتظار». بالرغم من مقاومة هذه الأفكار، وبالرغم من محاولاتها الجاهدة لإبعادها عن ذهنها، علمت «إيندیا» الآن السبب الفعلي وراء ثقة «إيدان» المطلقة بنفسه وبها.

جعلها الانفعال الذي تملكها جراء ذاك العناق تدرك بوضوح يفوق كل الكلمات المعبرة عن ذلك، إلى أي مدى يبلغ تأثير «إيدان» عليها. فلم تتمكن سوى من مراقبته وهو يغادر بصمت مطبق، وبدت كل أعصابها تصيح بها لمناداته إليها ثانية.

هزت رأسها بيأس وأسى، وخطر «لإيندیا» للمرة الأولى أنها فهمت حقاً كيف نصب لها «إيدان» الفخ الذي أوقعها فيه. فكيفما استدارت أو اتجهت، لم تكن ترى أي وسيلة للنجاة.

إن بقيت ستغلبها مشاعرها، وستصبح مقاومتها أشد صعوبة مع مرور كل يوم. لكنها إن استسلمت لمشاعرها تضع نفسها بشكل كامل تحت سيطرة «إيدان». وستعرض نفسها لألم أشد بأساً من ذي قبل حين يرميها جانباً، كما سيفعل بلا شك.

لم تكن «إيندیا» قد تعافت كلياً من الألم الذي سببه رفضه لها سابقاً، وهي عاجزة عن مواجهة ذلك مرة أخرى. لكنها لا تستطيع الابتعاد كذلك، فعليها التفكير في والدتها وفي «غاري» وفي والدها أيضاً إن تعافى. لا تستطيع أن تتخلى عنهم جميعاً الآن...

***

٧ ـ لا ضوء آخر النفق

وضعت «إيندیا» علبة الطعام الأخيرة في سلة النزهات وأغلقتها. وخطت خطوة إلى الوراء، فأطلقت لهاثاً عالياً حين جعلتها هذه الحركة التلقائية تصطدم بقوة بجسم قوي العضلات.

ـ حاذري.

تخلل نبرته لون من المرح حين امتدت يدا «إيدان» لإمساكها كي تستعيد توازنها. لكن وضع رجليها الاثنتين على الأرض بثبات لم ينجح في تخفيف خفقات قلبها المتسارعة التي أثارها الإحساس بحضوره القوي.

ـ لقد أرعبتني! تتسلل إليّ بهذا الشكل!

ـ هذا واضح.

ازدادت نبرة المرح عمقاً الآن، وشعرت «إيندیا» بالدم يصبغ وجنتيها في استجابة له.

ـ أنت متوترة كالهرة، لكني لم أتسلل. لا بد أنك كنت غارقة في التفكير كي لا تسمعيني.

ـ كنت أركز.

كانت النظرة التي حدجها بها نظرة مشككة فعلاً، في حين بقيت مسحة المرح مرتسمة على فمه المثير. لكنه لم يقل سوى:

ـ هل هذا كل شيء إذن؟

وأومأ برأسه نحو السلة على طاولة المطبخ.

ـ جاهزة؟

لم تتمكن «إيندیا» سوى من إصدار همسة غير مفهومة. فالحقيقة أن كلمة

جاهزة، كانت عكس ما تشعر به.

- حسناً.

كان جلياً أن «إيدان» فسر جوابها بالموافقة. وأضاف:

- إذن، سأضع هذه في السيارة.

انتشل السلة عن الطاولة واتجه بها نحو الباب، فلم يترك لها خياراً آخر سوى أن تتبعه.

- أنت آتية؟

فأجابته «إيندیا» بحدة وعيناها تسطعان في تحد:

- هل لديَّ خيار آخر؟ اعتقدت أن من واجبي إطاعة الأوامر بصرامة. وأن عليَّ أن أقفز حين تصفق بأصابعك، وإلاّ!

استمرَّ «إيدان» في ملاعبتها بابتسامته الساخرة وقال:

- لقد اقترحت فقط أن علينا القيام بالأشياء معاً.

- اقترحت!

وأطلقت «إيندیا» نفساً مشككاً كارهاً نبرته المنطقية المبالغ فيها، وقالت:

- اقترحت، ليست الكلمة التي قد أستعملها.

قلدت «إيندیا» عمداً كلمات «إيدان»، التي قالها حين أعلن عن خطته للخروج من المنزل.

بعد اقتراحه بأن يظهرا بشكل أكثر إقناعاً، لم يغفل «إيدان» عن هذه المسألة، فقد ذكرها على العشاء في ذلك المساء، وهو يعرف جيداً أن والدتها ستدعمه في هذه المسألة لاقتناعها بما ظنته مصالحة رومنسية. وهذا الصباح، لحق بها إلى حيث كانت تضع الأغطية النظيفة على سرير «غاري» لكي ينذرها بشكل لم يدع مجالاً للنقاش. حاولت الاعتراض رغم علمها بأنها تخوض معركة خاسرة. فقالت:

- ليس لدي الوقت للقيام بأي شيء آخر.

وكانت تجهد لإدخال الأغطية في زوايا السرير. وأضافت:

- علي التواجد في المستشفى. أعلم أنه لم يعد في غيبوبة عميقة، لكن والدي بحاجة إلي.

قاطعها «إيدان» بفظاظة: «ليس في كل دقيقة من كل يوم هو بحاجة إليك»، وأضاف:

- والدتك هناك طيلة الوقت، و «غاري» أيضاً. وفضلاً عن ذلك، فهو يظل نائماً غالباً. كما أن والدتك ترغب في أن تأخذي قسطاً من الراحة.

- ربما.

سوَّت «إيندیا» الوسادات بحدة غير ضرورية.

- وقد تبدأ حتى بالتساؤل عما إذا كان يشوب هذه المصالحة المفترضة خلل ما.

- وأنت ستكره أن يخيب أملها.

حاولت ألا تظهر الارتعاش الذي مر على جلدها حين رأت عينيه تعتمان من الغضب من سخريتها الواضحة. وهمس قائلاً بحدة قاسية:

- لا أظنك تريدين مني أن أنقل كاهلها بالحقيقة الكاملة. ففي النهاية، لم يخرج والدك بعد من عالمه الخاص، وإن تحسنت حاله بشكل ملحوظ.

لقد حاصرها الآن. فلا يمكن نكران التحسن في حالة والدها منذ تلك الأيام الأولى السوداء. لكنه لا يزال يغيب ويصحو، مما لا يدل على الكثير.

وكان كذلك لا يزال لحسن الحظ يجهل وجود «إيدان» في المنزل. وتمكنت «إيندیا» من دعم حجتها لإقناع والدتها وغاري، بعدم إطلاعه على ذلك، أو حتى على عودة «إيدان» إلى ويستبوري، حتى يتعافى. كانت تخشى حتى من تصور ردة فعله المحتملة التي قد تنتج عن معرفته بأن الرجل الذي رهن له منزله، هو الآن مقيم فيه.

- إذن، ماذا الآن؟

بدا «إيدان» طبيعياً جداً. فمن يستمع إليه، لا يصدق أنه كان يلمح لها مهدداً بتحطيم عالمها كلياً.

- أعتقد...

أومأ «إيدان» برأسه إيماءة رضا مثيرة للاشمئزاز، دون أن يعير اهتماماً لكونها في الواقع لم توافق. فهو يعرف أن لا خيار آخر لديها.

- ما رأيك في مشاهدة أحد الأفلام أو تناول وجبة؟

جهدت «إيندیا» لإخفاء ألمها عن ملامح وجهها. لقد تناولا في الماضي العديد من الوجبات في المطاعم معاً، والتفكير في الجلوس على مقربة منه في ظلمة صالات السينما الحميمة، لم يكن أمراً تستطيع تصوره بأي درجة من رباطة الجأش.

ـ لا؟

قرأ مشاعرها على ملامح وجهها. وأضاف:

ـ المسرح إذن؟ أو سباق؟ مكان تستطيعين فيه ارتداء تلك الأثواب الأنيقة التي تحبينها جداً؟

جعلها كلامه ترفع رأسها بحدة وظهرت الدهشة والذهول على وجهها فقالت:

ـ الأثواب الأنيقة! لا بد أنك تمزح. كل ما أرتديه هو إما مصنوع باليد من لا شيء، أو معاد تفصيله من ثياب والدتي. إن كنت لا تصدقني...

وتابعت «إيندیا» بعدما رأت التبدل في ملامحه.

ـ إذن، سأريك. بإمكانك تفحص خزانة ملابسي بالمجهر، ولن تجد أي ماركة معروفة. أنا أضمن لك هذا!

ـ لا حاجة لذلك.

كانت كلماته متقطعة بشكل مفاجيء:

ـ الأمر فقط... أنت بارعة.

ـ أنا أستمتع بذلك.

لماذا كان لديها انطباع بأنه كان يهم بقول شيء مختلف، غير أنه بدّل رأيه في آخر لحظة؟

ـ طالما اعتقدت أني أحب امتهان ذلك... وربما أقوم بالتصميم. لكني قررت أن من الأفضل أن أقوم بشيء عملي أكثر، شيء أتمكن فيه من المساهمة في مدخول العائلة بأسرع وقت ممكن بعد تخرجي من المدرسة. وبدت دورة في العلوم السكرتارية أكثر عقلانية. وبات تفصيل الملابس مجرد هواية وطريقة عملية لإغناء خزانة ملابس محدودة جداً. حتى أني صنعت...

ـ حتى أنك صنعت...؟

حثها «إيدان» على الكلام حين جعلتها وخزة من التعاسة تبتلع كلماتها بسرعة. ثم عادت ودمدمت لا إرادياً:

ـ ثوب زفافي، إن كان لك أن تعلم.

ـ لكنه كان رائعاً.

ـ لم أظن أنك لاحظت ذلك. فقد كنت منهمكاً بالتلهف لقول جملتك العظيمة.

ـ لم أكن أتلهف لقولها.

تصاعدت من عتمة عينيه شرارات الغضب، فعلمت أنها تخطت الحد بشكل خطير.

ـ حسناً، شكراً لك على المجاملة على أي حال.

أفشلت المرارة التي شعرت بها محاولتها للتطاول عليه. وأضافت:

ـ يسعدني أن جهودي لم تذهب كلها سدى.

ـ كنت تبدين رائعة، أيتها الأميرة. لم أرَ في حياتي ما هو أجمل مما كنت عليه. وأنت تمشين في الممر نحوي. إن أي رجل كان ليفخر بأنك عروسه.

ـ لكن ليس أنت!

تفاقم شعورها بالألم الآن. وتابعت قائلة:

ـ من الواضح أنك لست أي رجل فحسب.

أدركت أنها قد تنهار إن هو تحدث أكثر عن اليوم الذي كان من المفترض أن يتزوجا فيه، فدمدمت شيئاً عن ترتيب سرير والدها، وفرّت. وجزعت حين لحق بها «إيدان» بصمت، ليعرض عليها المساعدة مرة أخرى. وسوّى السرير ببراعة ورشاقة. كان جلياً أنه لن يدعها وحدها قبل أن يحصل منها على جواب.

قالت «إيندیا» في دهشة:

ـ أنت بارع في هذا! لا بد أنك تدربت عليه كثيرا.

ـ اعتدت على مساعدة والدتي حين كان والدي... بعيداً.

ـ كم كنت تبلغ من العمر حينها؟

ـ سبعة أعوام أو ثمانية.

www.elromancia.com

بدت عيناه الداكنتان مكفهرتين بشكل غريب. وتابع:

- طالما اعتقدت أن الملاءات النظيفة الجديدة هي إحدى الرفاهيات البسيطة في الحياة.

- وأنا أيضاً.

إن تصور «إيدان» كصبي صغير، يساعد والدته في توضيب الأسرة، كان مؤثراً إلى حد اعتصر قلبها، فلم تستطع جراء ذلك كبت تنهيدة خفيفة. وعندما سمع «ايدان» تنهيدتها توقف عن ترتيب السرير، وقال فجأة بعدما أساء تفسير تصرفها:

- أنت بحاجة للراحة، «إيندیا». فأنت تبدين متعبة ومرهقة بسبب الدعم الذي تقدمينه لعائلتك منذ مرض والدك. لقد طبخت ونظفت و...

- على أحد ما القيام بذلك!

لم تكن لتعترف بالليالي التي عانت فيها من الأرق منذ ظهوره مجدداً في حياتها.

- أخذت أنت هذه المهمة على عاتقك لكي تتمكن والدتك من البقاء في المستشفى. لكنك الآن بحاجة لبعض الوقت لك أنت، فأنت أيضاً تعرضت للضغوط. إن والدك سيكون على ما يرام، «إيندیا»....

كان لطفه غير المتوقع يتعدى ما يمكن «لإيندیا» تحمله. وترقرقت دموع دافئة في عينيها، فأدارت له ظهرها لإخفاء دموعها.

- إيندیا.

سمعته يتحرك بسرعة وشعرت باللحظة التي اقترب منها فيها. لكن ما لم تتوقعه، كيف التفت ذراعاه حولها، فأحست بالراحة في دفئهما وقوتهما. كان مستحيلاً أن تقاوم حاجتها للاتكاء عليه والإحساس بصلابة جسده الذي يدعمها. فاستراح رأسها على كتفه كما كان يحصل في الماضي، والتصقت وجنته بشعرها. وشعرت بالأمان، فقالت بصوت متهدج:

- ظننت... أنه سيموت. كنت خائفة أن أفقده إلى الأبد.

- أعرف ذلك.

كان صوت «إيدان» منخفضاً وحاداً، وأضاف:

- لكنه سيتعافى. يجب أن تصدقي ذلك.

ثم أدارها بذراعيه ببطء، وارتفعت يده لتمسح آثار الدموع عن وجهها بلمسة بلغت من الرقة والنعومة ما بدت معه في تناقض مذهل تقريباً مع حجم قامته وقوتها.

- والدك رجل محظوظ جداً. فلديه أنتم الثلاثة قلقون بشأنه، تحثونه على التعافي... ولا بد أنه يعرف هذا.

أومأت «إيندیا» برأسها ببطء. لكن فكرة جديدة مزعجة مرّت في ذهنها.. لقد كان في صوته نبرة غريبة.

- إيدان، كيف كان شعورك حين... أعني والدك...؟

- حين مات؟

أكمل «إيدان» كلامها بعد أن اختنق في حلقها. وأجاب:

- لكي أكون صادقاً تماماً، شعرت بنفسي حراً.

رددت «إيندیا» كلامه في ذعر: حراً! هذا قول مقيت! لا أصدق...

قال «إيدان» بلا مبالاة:

- بل صدقي! سألتني عن شعوري... وقد أخبرتك.

وأظلمت عيناه بنوع من العدائية، وتلاشى كلياً مزاجه الذي كان مسيطراً منذ ثوان قليلة. وأفلتها بفظاظة ليلتقط الملاءات القديمة ويلفها على ذراعيه متجهاً نحو الباب.

لم تستطع «إيندیا» تركه يذهب بهذا الشكل. فالثواني القليلة التي أمضتها بين ذراعيه تركت أثراً عميقاً في نفسها، ولم تكن قد تخلصت بعد من وقعها.

- بالنسبة إلى دعوتك للخروج، والتي أنت مصمم عليها... لا أريد منك أن تنفق المال علي. إن كان علينا القيام بأمر ما، فأنا أفضل شيئاً بسيطاً، شيئاً لا يكلف فلساً واحداً.

- في هذه الحالة، قد نقوم ربما بنزهة.

كانت نبرة «إيدان» المتهكمة تعني بوضوح أن اقتراحه لم يكن سيؤخذ على محمل الجد. لكن «إيندیا» استقبلته شاكرة:

- هذا هو، عظيم! لا أستطيع تصور ما يعجبني أكثر من ذلك. لِمَ لا نقوم بنزهة في الهواء الطلق ونتناول الطعام، طيلة يوم كامل؟

لم تدر لماذا أضافت هذه الملاحظة الأخيرة. لكنه بدا من المهم بالنسبة إليها الهروب من محيط المنزل وأجوائه العاطفية، بما تحويه من ذكريات الماضي.

قالت «إينديا» وهي تلحق «بإيدان» إلى السيارة:

- أنا دهشة لموافقتك على المضي في هذا. أعني أنك لم تقم بشيء مماثل قط حين كنا نعرف بعضنا بعضاً في ما مضى.

- ربما عليك أن تسألي نفسك عن السبب.

- أنت لا تحاول الادعاء أني...؟

علقت الكلمات في صوتها حين تذكرت كيف أنه، في الأسابيع الأولى القليلة التي عرفته فيها، رافقها إلى أغلى المطاعم وأرقاها، وإلى العروض الحديثة. وكيف أنها حصلت على أفضل ما يمكن للمال شراؤه، ولم تبد قط أي اعتراض على ذلك.

الحقيقة هي أنها كانت تخاف أن تفعل. كانت تخشى إن هي اعترفت بميلها للأمور البسيطة أن يجدها «إيدان»، الرجل المتكلف، ساذجة ومضجرة. وكانت تخاف أن تفقده إن هي أضجرته، وأن يتحول إلى امرأة أخرى تشبهه أكثر منها، كتلك النساء اللواتي التصق اسمه بهن في السابق. وحين طلب منها الزواج به بعد ذلك اطمأنت كثيراً وفكرت أنه سيتسنى لهما الوقت كله الآن ليتعارفا عن كثب. هذا ما فكرت فيه، وكم كانت مخطئة في تقديرها!

سألته بحدة:

- هل تقول لي إني لو اقترحت القيام بأمور مماثلة حين التقينا للمرة الأولى، لوافقت؟

ردَّ عليها «إيدان» بقسوة:

- وهل تقولين لي إنك كنت ستختارين القيام بأمور مماثلة بهذه البساطة، وإنك تفضلينها على ما قدمته لك؟

واستدار فجأة، فرأت الشعاع البارد في عينيه يخبرها أنه لن يصدق كلمة مما تقول إن هي أجابته. وأضاف: «لا تقولي لي إن لديك من العمق ما لم أره».

- العمق هو ما لم تحاول حتى اكتشافه!

أجابها «إيدان»:

- هذا ما يعيدنا إلى اتهام بعضنا البعض بالأخطاء نفسها على ما أعتقد. كنا أغبياء حين ظننا أن بإمكاننا إنجاح الزواج، أيتها الأميرة. نحن حتى لم نعرف بعضنا بعضاً إطلاقاً.

ردت «إينديا» بقسوة:

- باستثناء أنك لم تخطط حتى لمحاولة إنجاحه!

استعانت بالغضب لإخفاء ألمها. وأضافت:

- في النهاية، كنت تخدعني في كل شيء منذ البداية.

- ليس في كل شيء، بيبيتي.

وأذهلها حين تشدق قائلاً:

- وبالتأكيد ليس منذ البداية.

تركها الوميض في عينيه الداكنتين في شك مما كان يدور في ذهنه تحديداً. كانت قد تركت شعرها الأسود يتدلى بحرية وطبيعية، لكنها رفعته الآن عن رقبتها إلى أعلى.

- لكني أعترف أنني في الماضي أعطيتك ما كنت أعتقد أنك ترغبين فيه. ولو كنت تفضلين شيئاً مختلفاً لما كان عليك إلا القول. أو أنه كان علي أن أسأل؟

جعلها كلامه تحدق، فاغرة فمها كسمكة تم اصطيادها، فعادت وغرقت في مزاجها الذي كان مسيطراً عليها في اللحظات السابقة.

- هل تحاولين التراجع عن هذا أيتها الأميرة؟

قالت مؤكدة بسرعة:

- آه! لا. في الواقع، كنت أتطلع إلى هذا. بإمكاننا النزول إلى ضفة النهر، إن أردت. لقد جلبت بعض الخبز كي نتمكن من إطعام البط. و...

ترددت حين رأت تعابير وجهه. كان ينظر إليها كما لو لم يرها قط في حياته من قبل، فأنهت كلامها برقة:

- أريد المجيء، إيدان.

ورأته يطرف بعينيه مرة واحدة وبصعوبة كأنه في حيرة من أمره.

ـ جيد، ستنطلق إذن.

استقر في مقعد السائق إلى جانبها وهي توثق حزام الأمان خاصتها. كانت منفعلة بشكل مؤلم، ومرهفة الحساسية لكل حركة تصدر عنه ولحركة يديه الحازمة والدقيقة على المقود أو على جهاز ناقل الحركة.

رفع النسيم الآتي من النافذة المفتوحة شعره الأسود عن وجهه، وبعثره في فوضى رقيقة على جبينه العريض. تاقت للمسه ومد يدها لتمرير أصابعها في شعره الأسود

استحوذ التوتر عليها وهذا جعلها تتحرك بصعوبة في مقعدها.

ـ هل النسيم قوي جداً عليك؟

التقط «إيدان» تحركها المتوتر فحدجها بنظرة متفحصة.

ـ أنا... آه، لا. أنا بخير.

ماذا تفعل بنفسها؟ في الماضي وقعت في شركه من رأسها إلى أخمص قدميها فهل ستدع نفسها تقع في الشرك مرة أخرى؟

ـ بدت والدتك سعيدة جداً هذا الصباح.

قطع صوت «إيدان» حبل أفكارها، فأعادها إلى الحاضر فجأة. وتابع:

ـ لقد أبهجتها حقاً الأنباء من المستشفى.

ـ سرها أن يحرز والدي هذا القدر من التحسن.

قدمت السعادة الحقيقية في جواب «إيندیا» الدعم الضروري لإخفاء فحوى أفكارها القلقة. وأضافت:

ـ هم يتحدثون عن نقله من العناية الفائقة. بالطبع، النطق لا يزال يطرح مشكلة، لكن حين...

ـ ماذا هنالك؟

تنبه «إيدان» إلى الطريقة التي همهس بها تنفسها عبر أسنانها، فتكلم عندما لم تتمكن من إجابته:

ـ كنت تفكرين في والدك، وتتساءلين عما سيحدث حين تتحسن حاله ما

يكفي لإخراجه من المستشفى؟

حدقت فيه «إيندیا» بذهول. كيف عرف بهذه الدقة المتناهية ما كانت تفكر فيه؟

تابع «إيدان» بهدوء، وكان انتباهه منصباً على الطريق أمامه «لا داعي للقلق. من الواضح أنه سيعود إلى المنزل للنقاهة».

لم يكن ذلك واضحاً «لأيندیا» إطلاقاً فقالت:

ـ لا يمكن أن تعني ذلك. لن ترغب في وجوده هناك.

أجابها «إيدان» بجفاء:

ـ أوافقك أني لست مستعجلاً للاستمتاع برفقته، وأنا متأكد أنه لن يرغب في رفقتي. لكني قلت لك أيتها الأميرة، أنا رجل عقلاني. والدك مدين لي بالكثير من المال، لكني حصلت الآن على المنزل في مقابل ذلك الدين. وبالمناسبة، هذا ما أفضله على المال النقدي أقل ما يمكنني فعله هو تأمين سقف يظلله حتى يتحسن بشكل يسمح له بالعثور على سقف لنفسه.

لم تستطع «إيندیا» تصديق ما كانت تسمعه:

ـ أتفعل ذلك؟

أومأ «إيدان» برأسه، مبقياً انتباهه على الطريق أمامه. وقال:

ـ بإمكان اتفاقنا أن يبقى سارياً كما في السابق. ففي النهاية، سيخشى والدك من عزمي على الاستيلاء على المنزل، إلا إن كنا نحاول إصلاح علاقتنا، أنت وأنا. ولا أعتقد أن حاله ستتحسن عند التفكير في الانتقال من المنزل العائلي في المستقبل القريب.

إذن، كان الثمن مرة ثانية موافقتها على لعب دور الخطيبة المتصالحة مع خطيبها؟ وعلم أنها ستوافق، فلم يكن لديها من بديل آخر. لكنها لا تزال عاجزة عن تصور ما قد يكسبه «إيدان» من ذلك. لم لا يخرجهم من المنزل وينتهي من ذلك؟ ما الذي كان يدور في هذا الذهن المخادع القاتم؟

لقد ظنت أنها ستبدأ قريباً برؤية بصيص النور في آخر النفق. لكن، ماذا لو أنها بعيدة كثيراً من نهاية هذا الكابوس، وأنها لا تزال في البداية؟

٨ ـ أسئلة حائرة

ـ أهناك ما يزعجك أيتها الأميرة؟

جعلت نبرة «إيدان» الرقيقة «إينديا» تصر بأسنانها لتكبت أي رد غاضب. لم يساورها أي شك في أنه يعلم تماماً ما كان يدور في ذهنها.

ـ كنت أتساءل كيف ستشرح كل الأعمال التي خططت لها للمنزل. سيعلم والدي أن المهلة المعطاة له لتسديد ديونه قد انتهت. لن يصدق أبداً أنك قد تستثمر مالك في المنزل للمتعة فقط.

ـ سيصدق ذلك إذا اعتقد أني قد أصبح صهراً له.

حملت هذه الكلمات «إينديا» على الجلوس مستقيمة في مقعدها.

ـ لكنك ستعيش في هذا المنزل في النهاية، أليس كذلك؟

تملك «إينديا» شعور بالانزعاج جعل صوتها يصبح حاداً. وأضافت:

ـ في النهاية، بما أنك استثمرت هذا القدر من المال في المنزل، لن ترغب في أن يحصل أحد غيرك عليه.

ركز «إيدان» على مناقشة فكرة محيرة قبل أن يجيب:

ـ ألا تعتقدين أن والدك سيكره رؤية منزل آل مارشنت بين يدي أحد طالما رفضه؟

قالت «إينديا» بروية:

ـ ربما. ومن ناحية أخرى، حين يرى ما تنوي القيام به في المنزل... وكيف أنك أنقذته من الخراب، وخططت للقيام بتحسينات ستحول المكان القديم إلى ما يليق بالقرن العشرين، دون أن تمحي طابعه الخاص بأي شكل... قد يعترف فعلاً بأنه كان السبب في ما آلت إليه الأمور منذ البدء. قد يتمكن من الاقتناع بأن المنزل

بين يدي من يحبه بقدر ما أحبه هو دائماً. وإن استطاع التغاضي عن قدر من كرامته الحمقاء، فقد يرى أنه لم يكن قط الشخص المناسب بالفعل لتولي أمره.

ـ أتظنين حقاً أن هذا ممكن؟

ـ آمل ذلك. لقد أفسد والدي الأمور، هذا أقل ما يمكن قوله. أستطيع فقط أن أصلي لكي يدرك بعد شفائه أين يكمن خطؤه ويبدأ بإعادة تنظيم حياته.

حين لاحظت «إينديا» بشكل مفاجىء كيف تحدق عيناه الداكنتان في وجهها، وقد علاهما شيء من التفكر والاهتمام، قطبت وجهها بعصبية. وقالت:

ـ لمَ تنظر إليَّ هكذا؟

ـ كنت أفكر فحسب.

أعاد «إيدان» انتباهه إلى الطريق، وأضاف:

ـ قد يظن البعض أن لديك أسباباً تجعلك تستائين من والدك. ففي النهاية، إن حماقاته هي التي وضعتك وعائلتك في هذا الموقف الصعب.

ـ أعرف هذا. وصدقني، لو كان في صحة جيدة، لرغبت في هزه بسبب غبائه. لكنه والدي، ورغم أخطائه ما زلت أحبه.

ـ ووالدتك أيضاً.

كان هناك نبرة غريبة في كلامه، لم تستطع «إينديا» تفسيرها حتى.

ـ بالطبع تحبه، فهو زوجها.

حملها صوت ناقل الحركة الفجائي على النظر إلى وجهه بسرعة، فرأت توتراً لم تتوقعه، جعل بشرته تتقلص.

ـ إيدان؟

ـ إنه ليس أمراً حتمياً، «إينديا».

كانت الكآبة في صوته متناغمة مع ملامحه، فأقلقها ذلك. وتابع قائلاً:

ـ إن خاتم الزفاف لا يعني الحياة السعيدة إلى الأبد. فأحياناً، كل ما يفعله الزواج هو تغطية الحطام.

ـ يبدو أنك تتكلم عن تجربة سابقة.

تكلمت «إينديا» بحذر. فالطريقة التي رمى بها «إيدان» كلماته أظهرت

مشاعر شخصية قوية. لكنها لم تدر إن كان سيسمح لها بطرح المزيد من الأسئلة عن الموضوع.

كان واضحاً في المرات القليلة التي تكلم فيها عن والديه في الماضي، أنه لا يرحب بأسئلة إضافية عن الموضوع. لذا، التزمت الصمت لخوفها من القيام بأي شيء قد يغضبه. لكنها كانت عاجزة الآن عن فعل ذلك. حتى وإن كان الحديث في هذا الموضوع يشبه إشعال النار في فتيل قنبلة ما.

أومأ «إيدان» بتجهم، وقال:

ـ لم يكن ما بين والدي زواجاً، بل كان بينهما حرب أهلية خاصة بهما. كان أحدهما يمزق الآخر إلى أشلاء يومياً تقريباً. لم يستطع أحدهما أن يخلص للآخر للحظة واحدة.

ـ لماذا لم ينفصلا؟

كانت صدمة «إيندیا» بادية في صوتها، فهي لم تحزر قط شيئاً من ذلك.

ـ آه، لقد حاولا مراراً. لكن، لم يكن ذلك قط يدوم طويلاً. كان والدي يترك المنزل دائماً. لكنه سرعان ما كان يعود بسرعة. المشكلة أنهما لم يستطيعا الحياة منفصلين، لكنهما لم يتمكنا كذلك من العيش معاً. فحوّلا الحياة إلى جحيم لكل من كان حولهما.

خطر «لإيندیا» أن ذلك يشمل ابنهما. وانفطر قلبها على الولد الذي كانه «إيدان» حينها، والذي استترت سعادته الآن خلف منطق الرجل الواقعي البارد.

ـ إنها قصة قديمة. لم يشكلا أول حالة من هذا النوع. وأشك جداً في أن يشكلا آخر حالة.

تاقت «إيندیا» بشدة للاقتراب من «إيدان» واحتضانه بقوة. لكنها علمت أنه سيرفض أي مبادرة من هذا النوع. فأضاف قائلاً:

ـ لم يكن ما بينهما زواج حب، أو حتى علاقة حب وكره. بل كانت علاقة شهوة ممزوجة بالكره. لقد حولا حياتهما إلى معركة طويلة. كانا يتعاركان طوال الوقت فتنشب بينهما مباريات صراخ، غالباً ما كانت تتطور إلى عنف حقيقي. وفي النهاية، قتل كل منهما الآخر.

ـ إيدان، لا!

لم تتمكن هذه المرة من التراجع. فتحركت يد «إيندیا» لا شعورياً لتستريح على ذراع «إيدان» في محاولة للتعبير بصمت عن تعاطفها، وكانت عيناها الداكنتان مشدوهتين من الصدمة. رمقها «إيدان» بنظرة سريعة قبل أن يركز انتباهه ثانية على الطريق وفمه يتلوى بمرارة. وقال:

ـ آه! ليس بالمعنى الحرفي ربما، لكن ما يشبه ذلك. كانا قد توصلا في آخر مرة، إلى ما يسمى بـ «المصالحة»...

كانت ضحكته قاسية، كأنها تمزق الهواء داخل السيارة. وأضاف:

ـ بدءا بالمشاجرة من جديد، حتى في طريق العودة إلى البيت من النزل الذي كان والدي يقيم فيه، حيث ذهبت والدتي لاصطحابه. كان ذلك في منتصف فصل الشتاء، في ليلة قارسة البرودة. لكنهما كانا يتشاجران بعنف بحيث أنهما لم يتنبها للجليد، إلا بعد فوات الأوان. فانزلقا عبر الطريق ليسدّا ممر شاحنة نقل آتية. فقتلا على الفور.

ـ لكن، كيف تعرف أنهما كانا يتشاجران؟ من المحتمل أن الأمر كان مجرد...

قاطعها «إيدان» بقسوة:

ـ أنا أعرف. كنت في المقعد الخلفي من السيارة. كانت معجزة أني لم أقتل كذلك.

وغرق في صمت مطبق كئيب، لم تجرؤ «إيندیا» على خرقه. لقد قال مرة:

ـ لا أدع أبداً أحداً غيري يقود بي السيارة.

وذلك حين عرضت عليه أن تتولى هي القيادة. ففهمت الآن السبب. آه! يا إلهي. فهمت إلى حد جعل دمها يتجمد في عروقها لمجرد التفكير بذلك. وتحرك ثانية بعد طول انتظار، ومرر يده في شعره الأسود الداكن متنهداً بعمق.

ـ لقد دفنوهما معاً.

مرة أخرى، جعلتها تلك الضحكة القاسية الساخرة تجفل. وتابع قائلاً:

ـ كانا ربما أقرب إلى بعضهما بعضاً مما كانا عليه في حياتهما.

أجابته «إيندیا» بجرأة:

ـ باستثناء المرة التي تم فيها تكوينك أنت.

ـ بالكاد.

بدا المرح القاتم في صوته أسوأ حتى من تلك الضحكة، فقاطعته «إيندیا» بحدة حين أومأ برأسه في إنكار شديد.

ـ لكن، بغية ممارسة الحب...

ـ آه، بإمكانهما هذا في أي مكان وزمان... لا مشكلة، حتى عندما يكره أحدهما الآخر ويتمنى له الموت، العلاقة الجسدية ليست بحاجة إلى العواطف. ليس عليك أن تحبي لأجلها، هذا أمر أكيد. فالحب ليس عاملاً أساسياً في العلاقة. بل بإمكانها حتى أن تتأجج بالكره.

ـ كانا يكرهان بعضهما بعضاً وهذه حالنا نحن أيضاً.

انتظر «إيدان» حتى خرج بالسيارة عن الطريق إلى قطعة أرض وعرة صغيرة استخدمها لركن السيارة قبل أن يطفىء المحرك، ويلتفت إليها قاطعاً الصمت العميق، قائلاً:

ـ آه، أيتها الأميرة، أنا لم أكرهك قط.

كانت عيناه داكنتين إلى حد السواد تقريباً. ولم تستطع قراءة أفكاره فيهما، كما أن جسده لم يعبر عن شيء كذلك.

لم أكرهك قط. لكن، ما الذي كان يشعر به؟

فتح «إيدان» بابه، وهمَّ بالخروج، لكنه ارتد ثانية ليواجهها، وقال: «أتعلمين».

تابع بنعومة:

ـ هناك أمر واحد يجبرني. لقد عدت منذ... كم؟ نحو أسبوع؟... إلى منزلك، وإلى حياتك. ومع ذلك، لم تسأليني مرة واحدة طيلة هذا الوقت لماذا تخليت عنك.

حرك الغضب المتأجج فم «إيندیا»، محرراً لسانها، فتمكنت من الكلام أخيراً وأجابته:

ـ هذا لأن السبب واضح بشكل صارخ!

ـ هل هو كذلك؟

كان هناك شيء ما في تعابير وجهه، شيء من التغير البسيط لم تستطع أن تحدده. وهذا ما جعلها تنظر إليه بتمعن وتفحص. لكنها، ما إن ركزت نظرها عليه، حتى وجدت أن ما تكشف من مشاعره الدفينة المحيرة قد تلاشى.

وعاد وجهه إلى البرودة والغموض السابقين. فقالت ببطء:

ـ إن لم يكن الأمر كذلك، فقل لي إذن...

سبقها «إيدان» قائلاً بفظاظة:

ـ لا، بل قولي لي أنت.

ـ لماذا؟ حسناً، من الواضح أنك فعلت ذلك لأني..

جعلت تتخبط بحرج بحثاً عن بديل محتمل.

ـ لأني جرحت كبرياءك بسعيي إلى أموالك بدلاً منك وحدك...

تدخل «إيدان» مقاطعاً بكلمات باردة جداً:

ـ إن كنت حقاً تظنين ذلك، «إيندیا» فأنت في الحقيقة لم تعرفيني قط.

تركها تلهث من الصدمة والارتباك، وفتح الباب بقوة، وخرج من السيارة ليفتح الصندوق الخلفي ويتنشل منه سلة الطعام.

ـ حسناً، انتظر لحظة!

اندفعت خارج السيارة وأسرعت لتقف إلى جانبه:

ـ لا تستطيع أن تصرح بشيء مماثل، ومن ثم تتراجع عنه!

كان رده الوحيد أن هز بكتفيه العريضتين بلا مبالاة قبل أن يغلق صندوق السيارة بقوة وينطلق على الممر الضيق الذي يؤدي إلى ضفة النهر.

ـ إيدان!

اضطرت للهرولة في مشيتها لتلحق بخطواته الطويلة الرشيقة.

ـ أأذكرك بأنك أنت من تخلى عني؟

ـ هكذا فعلت.

بدا لاهياً، وعكست كلماته نبرة خفية من التهكم المرح. وأضاف:

ـ لكني أنا كذلك من طلب الزواج بك. هل خطر لك يوماً أني لو أردت فعلاً

أن أؤذيك، لكان أشد ظلماً وقسوة أن أقدم على الزواج بك، وأن أقيدك بي مدى الحياة؟

ـ أقيدك...؟

تجمدت في مكانها من الارتباك، بينما تابع «إيدان» سيره. شمخ برأسه إلى أعلى ونصب ظهره الطويل بثبات وأشاح بوجهه عنها بعزم.

واضطرت هذه المرة إلى الركض لتلحق به. ولم تتمكن من ذلك إلا حين توقف فجأة بحيث كادت ترتطم به. فقال وهي تجهد لالتقاط أنفاسها:

ـ يبدو هذا المكان جيداً للاستراحة. ما رأيك؟

عجزت «إيندیا» عن تصديق نبرته العادية، ولاحظت أن مجموعة الشجيرات الخفيضة تؤمن عزلة تامة، وتبسط كذلك ظلالاً تقي من حرارة الشمس. كما لاحظت أن النهر يهوي في شلال صغير، متلألئاً في ضوء النهار قبل أن يشكل بحيرة واسعة متوسطة العمق على مسافة قريبة.

قالت شاردة الذهن:

ـ هذا ممتاز.

ثم عادت إلى الموضوع الذي كان يشغل بالها بالدرجة الأولى.

ـ لم تواصل تجنب إعطائي أي إجابات...؟

ردّ «إيدان» بحدة:

ـ أنا لا أتجنب شيئاً. عندما تطرحين الأسئلة الصائبة، أجيبك.

ـ الأسئلة الصائبة...

هزت «إيندیا» رأسها في حيرة. ما هي تلك الأسئلة الصائبة؟

ـ «جيد».

علمت من هذه المفردة المقتضبة الفظة أن «إيدان» فسّر ردة فعلها كرفض لقول أي شيء آخر. فأضاف:

ـ إذاً، هل تريدين تناول الطعام الآن؟

شغل نفسه بمد البساط المخطط الذي أحضراه معهما، قبل أن يتمدد عليه بتكاسل، مادّاً ساقيه الطويلتين على نحو مريح، ثم شرع بإفراغ سلة الطعام.

بعد ثانيتين اثنتين شعرت «إيندیا» بأنها بحاجة ماسة لتستجمع أفكارها وتهدىء نفسها. انضمت إليه على العشب، وتم إفراغ ما بقي في السلة بصمت. ولم تجد القوة لتحاول من جديد، إلا بعد أن سكبا الطعام في طبقيهما.

قالت:

ـ حين طلبت مني الزواج بك، هل كان عرضك جزءاً من خطتك فحسب؟ أعني، هل طلبت ذلك مني فقط لكي... لكي...؟

عجزت عن التلفظ بالكلمات هذه: لكي تؤذيني، فهي لم ترد أن تفضح نفسها إلى هذه الدرجة فقالت:

ـ لكي تتمكن من إذلالي عبر رفضي في حفل الزفاف؟

أخذ «إيدان» الوقت الكافي ليجيب، فأنهى قضمة من الدجاج البارد قبل أن يقول:

ـ قد لا تصدقين ذلك، لكني لم أقصد أن تجري الأمور على هذا النحو. فقد أتيت إلى الكنيسة وأنا عازم حقاً على الزواج بك.

كان هذا آخر ما توقعته، وهذا ما جعل أفكارها تهتز بعنف شديد. وأجابته:

ـ آه، دعك من هذا! لا تتوقع مني أن أصدق ذلك؟

تلاقت عينا «إيدان» الداكنتان بعيني «إيندیا»:

ـ لم لا؟ صدف أن هذا حقيقي. في ذلك الوقت، اعتقدت فعلاً أن بإمكاني المضي بذلك حتى النهاية.

ـ المضي بذلك حتى النهاية!

ارتاحت «إيندیا» من الغضب الذي سيطر عليها والذي ساهم في إخفاء ألمها. لقد عرفت أنه لم يحبها قط. لكنها مع ذلك، لم تكن مستعدة لمثل هذا التصريح الفظ.

ـ أنت تصوّر الزواج وكأنه نوع من التعذيب المروع.

أجابها «إيدان»:

ـ لقد كنت مكلفة للغاية. كانت عائدات استثماري أقل بكثير مما كنت آمل

- استثماري! لم يكن الأمر صفقة تجارية لعينة!

- ألم يكن كذلك؟ إذن، قولي لي، أين هو الفرق؟ أنت أردتني وأموالي، وأنا أردتك أنت. فما كان علينا سوى الاتفاق على الشروط.

توقف هنيهة عن الكلام ثم أضاف:

- لكنك أنت من أوضح رغبته في الزواج، والزواج سريعاً.

- لا تذكرني بذلك!

حدقت «إيندیا» بحسرة بالبساط، متعقبة الخطوط المنقوشة عليه بإصبعها. لم ترد أن تتذكر كم.. بغض النظر عن حبها لهذا الرجل.. كم أرادت أن تضع خاتمه في إصبعها، حتى كادت لا تكترث بأي شيء آخر.

ثم خطرت لها فكرة مفاجئة، فتوقفت يدها عن الحركة المستمرة. وقالت:

- ما الذي كنت تريده مني، سوى ما كان واضحاً؟

تجمدت أوصالها حين أمسكت إحدى يديه بيدها، بينما انسلت الثانية تحت ذقنها، رافعة وجهها إلى أعلى لتواجه عينيه المحدّقتين بها بتفحص. وهمس لها برقة:

- لا تقللي من قدرك، أيتها الأميرة. أنت تتمتعين بالعديد من المميزات التي تعجبني، دون الحديث عن مظهرك الخارجي حتى. فأنت تملكين نمطاً مميزاً وطابعاً خاصاً ومنزلة رفيعة. أنت سيدة أنيقة جداً.

لقد قصد المجاملة في الواقع. هذا ما لاحظته «إيندیا» بانبهار. ظن حقاً أنه يشبع غرورها وكبرياءها بما قاله. واستطاعت سماع صوت والدها في ذهنها وهو يردد اتهامه لإيدان، والذي عارضته بشدة منذ سنة خلت. فقد سخرت «إيندیا» من والدها حين قال إن الأسباب التي تدفع إيدان للزواج بها هي الجشع. لكن والدها أضاف شيئاً آخر صعب عليها رفضه:

- لكن هناك ما لا يستطيع المال شراؤه إيندي... وهي المكانة الاجتماعية الرفيعة. ربما جمع «إيدان وولف» ثروة، لكنه صنع نفسه من الحضيض. وأنت من أفراد «آل مارشنت» الذين يملكون منزل ويستبوري. ويعود أسلافنا إلى فاتحي إنكلترة الاسكندنافيين. وهذا ما لا يستطيع أن يدّعي امتلاكه. معك أنت إلى

جانبه، سيتمكن «إيدان وولف» من دخول أرفع البيوت مقاماً في البلاد والمشاركة في أكبر المناسبات. فتنفتح أمامه أماكن لا يستطيع ماله إدخاله إليها.

لقد ضحكت من الفكرة حينها... لكنها الآن، حين استخدم إيدان، كلمة «منزلة رفيعة» بتأثر وانفعال، تجذّرت الفكرة هذه من جديد في ذهنها. وباتَ واضحاً أمام ناظريها كم قد يكون راغباً في هذا النوع من النفوذ الاجتماعيّ، وكم يشكّل هذا الأمر بالنسبة إليه أهميّة كبرى. سيكون ذلك الشيء الوحيد الذي لا يستطيع شراؤه لنفسه.

- في النهاية، أنتِ سيّدة المنزل.

كانت هذه الملاحظة القشّة التي قسمت ظهر البعير، مما جعلها تنتفضُ مبتعدةً عنه، وعيناها الزمرّديّتان تتطاير منهما شرارات الرفض.

- لا تلمسني! لا أريد منك أن تقترب منّي أبداً.

جعلها الغضب تقف على رجليْها وهي تحدّق إليه. وما زاد في حدّة غضبها ملامحه الجامدة الباردة.

- لأنّي سأقول لكَ أمراً، لم أتوقّف يوماً عن الامتنان لك لتصرُّفكَ منذ سنةٍ خلتْ! آه أنا أعلم أنّي لم أُظهر ذلك حينها، لكنّي حين هدأتُ، أدركت أنّكَ أسديت لي خدمة كبيرة بعدم الزواج بي. لقد حرّرتني.

- لكي تحوّلي اهتمامكِ إلى «جيم».

- جيم؟.

غابَ عن بالِ إيندیا لبرهةٍ قصيرة ما ادّعتهُ من أنّ جيم هو الرجل الجديد في حياتها. لكنّها سرعان ما تنبّهتْ، فأومأت برأسها بحسم: «نعم، نعم، جيم! فهو يعادل اثنين منك، من حيث الشخصيّة والطبع، إن لمْ يكن من حيث الناحية الماليّة».

- بالتأكيد هي أهم من المال بالنسبة إليكِ الآن.

قطبت إيندیا وجهها بارتباك، ولم تفهم التشديد على تلك الكلمة الأخيرة:

- ماذا؟ أرغبُ في أن تشرح لي ذلك.

- ما من داعٍ لذلك، حتماً. إن كنتِ فعلاً تعلمين القليلَ حسبما تدّعين، فلم

لا تسألين والدك . . . أو مدير المصرف؟ .

ـ لا أستطيع . . . مدير المصرف؟ .

ـ آه دعكِ من هذا، أيّتها الأميرة! أنتِ لا تحاولين الادّعاء بأنّك تجهلين الاتّفاق الذي سبق الزواج؟ .

ـ سبق . . . أيّ اتّفاق سبق الزواج؟ .

ـ الاتّفاق الذي أوكلتِ أبيك به ليفاوضه عنكِ. المسألة التي تتعلّق بثروة صغيرة توضع في حساب مصرفيّ باسمكِ، إن تزوّجنا أم لم نتزوّج.

ـ آه ، أعلم الآن أنّك تختلقُ كلّ ذلك! لسببٍ أوّل، أنّ ما من أحدٍ يوقّع على دفع ماله بشروطٍ كهذه . . . على الأقلّ ليس أنت! ولسببٍ آخر، إن كان هذا المال الخرافيّ لي أنا حقاً، فلما إذن لم أرَ أيّ أثر له؟ لم يكن هناك حتى وثيقة مصرفيّة، لم يكن هناك شيء!

ـ أتظنّين أني سأدعك تضعين يديك الصغيرتين الجشعتين عليه فوراً.

كانت نبرة إيدان المتهكّمة فظّة وقاسية، وأضاف:

ـ جعلت المحامين يغلقون الأمر بحيث لا تتمكّنين من لمسه لسنةٍ كاملة. لكن كان يجب أن تحصلي على إشعارٍ في يوم ميلادك.

لكنّها في يوم ميلادها، كانت منهمكةً بالهموم والمشاكل التي نتجتْ عن مرض والدها، بحيث لم تفكّر سوى في فتح البريد الضروريّ جداً. كان هناك في غرفتها رزمة كبيرة من الرسائل التي ما تزال تنتظر التفاتتها.

ـ لم أكن أعلم ولم أتمّ قط . .

لكن إيدان كان قد فقد أيّ اهتمام بالموضوع، فاستلقى إلى الخلف متكئاً على جذع الشجرة، وأغمض عينيه غير آبهٍ بها. ثم قال بنبرةٍ مختلفة:

ـ وأنت مخطئة كلياً. فجيم ليس بالرجل المناسب لكِ، فهو ضعيف وخجول أكثر ممّا ينبغي.

ـ لا يحقّ لك.

بدأت إينديا كلامها بسخطٍ لكنّها توقفت على نحوٍ مفاجىء حين ارتفع جفناه الحادّان بسرعة، وحدّقت إليها العينان الداكنتان في تفحصٍ متغطرسٍ جعل جلدها

بحذر.

ـ حسناً انظري إلى الأمر من هذه الناحية . . . أنا مقيم في المنزل منذ كم من الوقت؟ منذ أسبوع؟ والرجل لم يظهر حتى، وهذا لا يكاد يعتبر تصرف رجل نبيل يمتطي فرساً أبيض حين يواجه خصمه ومنافسه على يد امرأته.

لم يكن ذلك مفاجئاً إطلاقاً، باعتبار أنّ جيم لم يعرف حتى أنها استعملت اسمه سدى، وبهذه الطريقة. فقالت إينديا بنبرةٍ أملت أن تعكس قناعةً لم تكن تشعر بها.

ـ يعود السبب في ذلك إلى أنه يعي تماماً أنك لست منافساً له! فهو يعرف أنيّ لا أهتم بأيّ شخصٍ آخر.

ـ هل هذا صحيح؟

تساءل إيدان عن صحّة تصريحها هذا بنبرة ساخرة، ورفع حاجبه إلى أعلى وأضاف: «وأنا الذي كنتُ أظنّ أن الجبن هو الذي يبقيه بعيداً عنكِ. مع ذلك، فإنها علاقة غريبة. أنتِ تدّعين أنه حبّ حياتكِ، وبالرغم من ذلك، لا ترينه أبداً لقد كنتِ في المنزل كلَّ ليلة، حين لم تذهبي إلى المستشفى؟

ـ هذا ليس من شأنك!

انفجرت إينديا من الغضب. وخافت من رؤيته يقترب من الحقيقة إلى هذا الحدّ. وتابعت:

ـ قد تكون امتلكتَ المنزل، لكنّك لا تملكني! سأفعل ما أشاء، حين أشاء. وسأكون شاكرةً لك إن كففت عن التدخّل في حياتي!

لم يُصدر الرجل الماثل أمامها أيّ ردة فعل، فأشعل صمته غضبها. وعلمت أن عليها الابتعاد عنه الآن لئلا تقوم بشيءٍ مريع حقاً. وقالت له:

ـ والآن، ما أرغب القيام فيه، هو التنزّه وحدي! .

لم يحاول «إيدان» إيقافها. بل إنه لم يبدِ أيّ انفعال من التحدّي الذي ظهر في كلامها. فسوّى في المقابل جلسته على جذع الشجرة، في راحةٍ واسترخاء. ودمدم قائلاً: «أراكِ قريباً». ثم أغمض عينيه ثانيةً، ولم يترك لها بذلك أي خيار آخر سوى الابتعاد، وشرارات الغضب تتطاير منها.

٩ ـ الخيار المرّ

دفع الغضب قدمي إيندیا إلى الأمام. لم تأبه إلى أين كانت متجهة، بل مشت بمحاذاة النهر، ترفسُ الأحجار بعيداً عن طريقها، متمنية لو أنها إيدان وهي تضربها بقوة بأصابع قدميها.

كيف يجرؤ على ذلك؟ كيف يجرؤ على معاملتها بهذه الطريقة؟ لقد انتقل إلى بيتها، وإلى حياتها، مستولياً عليها و...

وماذا؟.

خطر لها السؤال بقوة، فجمدت في مكانها. أليست الحقيقة أنها منذ وصول إيدان كانت تقاوم بشدة بحيث أنها لم تتوقف قط لتفكر في ما كانت تقاوم ضده؟.

حسناً، لقد انتقل إيدان إذن للإقامة في منزلها لكنه يملك الحق القانوني الكامل في هذا، فالخطأ خطأ والدها. هو الذي قامر بمنزلهم العائلي بغباءٍ بالغ، وهو الذي خاطر بكل شيء، دون أن يبالي بتأثيرات أفعاله المحتملة على عائلته.

كان إيدان في المقابل من أمّن لهم سقفاً يأملهم حين كانوا بأمس الحاجة إليه. وأكثر من ذلك باشر بالتصليحات الضرورية التي حالت دون انهيار المنزل القديم إلى حطام وخراب. حتى أنه طلب رأيها في هذه الأعمال آخذاً في الحسبان ما تفضله هي، باهتمام بالغ. كما أنه جنب والدها معرفة الحقيقة المريرة عن تصرف زوجها. وقام بذلك بإنقاذ والدها من نتائج أفعاله المحتملة.

لكن، لماذا؟.

هل من المعقول أن تكون قصة الاتفاق الذي سبق الزواج حقيقية؟ كان عليها الاعتراف أن ذلك يبدو من الأعمال الانتهازية التي قد يقوم بها والدها فعلاً. وهذا

يفسّر حتماً إقدامه على المقامرة فقد ظن أن مالها قد ينقذه من السجن.

بإمكان ذلك أن يفسر الملاحظات الغامضة الآزدرائية التي أعطاها إيدان عن المال، وذلك منذ ظهوره مرة ثانية في حياتها، وحتى قبل ذلك.

ـ عليك أن تتدبّري أمركِ بما لديك؛ ليس لديّ المزيد لأقدّمه لك.

هذا ما قاله لها إيدان في الكنيسة قبل أن يبتعد عنها أخيراً.

ماذا لو كانوا يملكون المال طوال هذا الوقت؟ إن لم يكن ما يكفي لتسديد ديون والدها، فما يكفي على الأقل لجعل حياتهم أسهل بكثير؟ وإن كان هناك مال، فقد أتى من إيدان.

لماذا إذن وقع إيدان اتفاقاً من هذا النوع قبل الزواج؟ خاصةً أنه لم تكن لديه أي نيّةٍ في إتمام الزواج وهذا يعني أنه لن يحصل على أي شيء من الاتفاق؟.

ـ عندما تطرحين الأسئلة الصائبة أجيبك.

تردد صوت إيدان في رأسها فقطبت وجهها بارتباك. فقط ما هي الأسئلة الصائبة؟ كيف تسأله إن كانت لا تدري ما تقول؟.

استدارت إيندیا فجأةً، واتجهت عائدة من حيث أتت. كانت تريد التحدث إلى إيدان والعثور على الأسئلة الصائبة لطرحها، حتى وإن قتلها ذلك!.

صعقت بعض الشيء حين نظرت إلى ساعتها واكتشفت أنها ابتعدت ما يقارب الساعة. ولا بد أن إيدان يتساءل عن مكان وجودها.

حين بلغت الفسحة الصغيرة وجدت أن إيدان لم يكن يفعل شيئاً مماثلاً. فلم يكن منها إلا أن وقفت محدقة بمنظر إيدان المتكىء باسترخاء على جذع الشجرة. كانت عيناه مغلقتين بإحكام، وكان جلياً أنه يغط في نوم عميق وهادىء.

أبعد هذا المشهد عن ذهنها كل تساؤلاتها وهمومها السابقة. وتحركت بهدوءٍ على العشب الندي، جالسةً إلى جانبه. لفت ساقيها تحتها، وراحت عيناها تحدقان إلى وجهه.

قالت برقّة: «إيدان...»، لكنه لم يتحرك.

كانت قريبة منه إلى حد استطاعت معه سماع صوت تنفسه الرقيق، ورؤية صدره يعلو وينخفض حتى أنها تمكنت من التقاط ارتجاج أهدابه الطويلة الكثيفة

التي ترتسم كهلالين أسودين فوق عظم وجنتيه الحاد، وأدفأت أشعة الشمس بشرته السمراء التي انصبغت بلونٍ ذهبيّ.

لاحظت إيندیا بنوعٍ من الاندهاش والانفعال أنها لم تره قط بهذا الشكل من قبل. لم تره هكذا مرة واحدة. حتى في الفترة التي كانا فيها مخطوبين، لم يغط مرةً في النوم في حضورها ولم يستسلم قط إلى هذا الضعف الإنساني.

إذن، ألم يكن حقاً يثق بها تماماً؟ هل كان يعلم أو يشكّ على الأقل في أن هذا الاسترخاء التام يطرّي خطوط وجهه القاسية، ويمنحه مظهراً أكثر شباباً وأشد حساسية ورهافة؟ هل حزر أن هذا سيمسح عن وجهه ملامح الثقة والاعتداد بالنفس التي كان يضعها كقناع يمكنه من مواجهة العالم؟.

وإن كان الأمر كذلك، فلماذا أراد إخفاء هذا الشق الصغير في درعه عن الجميع، خاصةً عنها هي؟ هل السبب يتعلق بتلك اللحظات في السيارة حين سمح لها بشكلٍ وجيز بأن تشاركه آلاماً ماضية، فكشف لها للمرّة الأولى عن الصبي الذي حولّت «الحرب الخاصة بين والديه» حياته إلى جحيم؟.

ما الذي أخفاه أيضاً عنها؟ هل عرفت حقاً أي شيء عن هذا الرجل الذي وافقت يوماً على الزواج به؟ وأنبها ضميرها بحدة.

هل أعمتها المشاعر التي تكنها لهذا الرجل عن رؤية أيّ شيء آخر، فدفعت بعيداً أي عوائق محتملة قد تقف في طريقها؟ أم أن الأمر كان كما ألمح إليه إيدان، أنها كانت عازمةً على نيل مرادها بحيث لم تتوقف قط للتفكير بوجهة نظر أي شخص آخر؟.

همست برقّة وحزن: «آه، إيدان...».

تحرك إيدان قليلاً في نومه كأنه شعر بوجودها، وتنهّد بإعياء. اعتصر قلب إيندیا بألمٍ حين رأت كيف تتحرك كتفاه.

كمْ من المرّات العديدة ألقت برأسها على هذه الكتف الصلبة وشعرت بنبضات قلبه الهادئة تحت وجنتها مباشرةً؟ كم من المرّات العديدة، ابتسمت ابتسامة نصير لشعورها بخفقات قلبه تتضاعف؟ إن نبضه ينتفض دائماً في استجابة مباشرة، وذراعاه تلتفّان حولها، ويعكس التوتر في جسده الطويل بوضوح التأثير

الذي لها عليه.

انفطر قلبها عليه وشعرت به يخفق حباً وحناناً.

- إيندیا؟.

مرت ثانية أو اثنين، ظنت فيهما أن النغمة الرقيقة التي لفظت اسمها بهذا الصوت الذي أحبّته يوماً، كانت جزءاً من ذكرياتها.

لكن سرعان ما انجلى الضباب الذي غشى بصرها، ورأت وجه إيدان، فأدركت أن عينيه كانتا مفتوحتين تحدّقان إلى وجهها. فانتفض قلبها بعنفٍ، مخرجاً كلَّ الهواء من رئتيها حين التقت عيناها بنظرته الممعنة.

ودمدم بتكاسل: «لم لا تعانقيني..؟».

إنها تريد ذلك بالفعل، وإلى حدّ بعيد. لم يكن من فائدة من إنكار الواقع، حتى لنفسها، وبالطبع له هو.

لكن، بالرغم من علمها بالعجز عن اخفاء ما كانت تشعر به، عرفت أيضاً أنها عاجزة عن الاقدام على معانقته. وأمسكت عينا إيدان بعينيها بسلطة ساحرٍ وأبقتاهما مثبتتين، تتحكمان بها بقوة خفية لكن فعالة جداً.

- لا؟.

رفع حاجبه الداكن بلهوٍ كسولٍ واتسعت ابتسامته:

- إذن، سأسهل الأمر عليك. أتسمحين؟.

وقبل أن تفكر في ما يخطط له، رفع نفسه إلى أعلى، وامتدت يده لتلتف على مؤخرة عنقها. وراحت أصابعه الطويلة القوية تمسك بخصلات شعرها الأسود المزرق وبدأ يدني وجهها ببطء منه بشكلٍ لا يقاوم. كانت ابتسامته آخر شيء رأته قبل أن يعانقها.

بقيت إيندیا للحظة بلا حراك، لا تعي كيف تستجيب. لكن قلبها كان يعرف ما يريد. إنها بحاجة ماسة إليه، إلى دفئه ورقته... وحبه.

لم تتمكن من مقاومته، فضمته بقوة وقلبها يعصف بين جنباته... ما سر تأثير هذا الرجل فيها؟ إن قربه منها يكفي لإذابة عظامها.. لماذا تشعر بأن العالم كله غير مهم وأن المهم فقط أن تبقى قريبة منه ومن دفء ذراعيه ومن نغمات قلبه وهو

يخفق بهذه القوة؟

ـ «لقد اشتقت إليك». وأضاف: «يا إلهي ليتك تعلمين فقط إلى إلى أي درجة!».

كانت تعلم. هذا ما قالته في نفسها. كيف يمكن ألاّ تعرف وكيانها كله يتحرّق شوقاً إليه... إنه أهم ما في هذا الوجود.. إنه أهم حتى من الهواء والماء.

ـ أتدرين ماذا يفعل قربك مني؟ هل تستطيعين أن تخمني حتى...؟.

إن كان صوت إيدان قبل ذلك أبحّاً، فقد أصبح الآن أجش. أما هي فشعرت بالفرح لأنها هي التي تؤثر فيه إلى هذه الدرجة وبادلته عناقاً بعناق.

كانت نبضاتها تقوى حتى شعرت أن صوتها يغلب هدير الشلال خلف ظهرها.

دمدم قائلاً: «لقد بقيت بعيداً عنك مدة طويلة يا حبيبتي، مدة طويلة، مدة لعينة طويلة جداً».

شعرت «إيندیا» كأن عروقها تفيض بالذهب المذوب، وأدركت فقط أنها تائهة في دوامة من المشاعر المخيفة... وأخذ عقلها يطرق على باب مشاعرها.

ما الذي تفعله؟ وكيف تسمح لمشاعرها بأن تجرفها هكذا؟...

ورغم الاحتجاجات التي كانت تدور في عقلها لم تكن هي من ابتعدت عنه. بل هو، إذ انسحب بعيداً عنها وكأنه يخاف من مشاعره، ومما قد تقودهما إليه.

ـ يجب أن نتحرّك قريباً.

ـ أيجب علينا ذلك؟

أدركت إيندیا أنها لا تريد لهذا الوئام الذي حل بينهما أن ينتهي. وبدت قطعة الأرض الصغيرة كمكان سحري منعزل عن الواقع الذي لم تكن تريد مواجهته. لهذا السبب، لم تجرؤ على النظر إلى «إيدان» مباشرة، لعدم رغبتها في رؤية تعابير وجهه، ولخوفها مما قد تكشف لها عيناه من أفكاره.

ـ تعلمين أنه يجب علينا ذلك، أيتها الأميرة. ستبدأ والدتك بالتساؤل عن مكان وجودنا.

ـ لا، لن تفعل. ستعلم أني برفقتك، وأني في أمان تام حسب رأيها.

كانت في المقابل في خطر داهم ومحدق أكثر مما كانت فيه من قبل في حياتها ـ عاطفياً على الأقل. ظنت نفسها في الماضي مغرمة «بإيدان»، لكنها عرفت الآن أن مشاعرها وقتذاك لم تكن سوى بداية بسيطة لمثل ذلك الشعور، فما عرفته لم يكن سوى أوّل برعم صغير نما منذ ذلك الحين ليصبح نبتة متجذرة وقوية.

الآن تعرفّ هذا، لكنها كانت خائفة من الاعتراف به. لقد أحبت «إيدان» واحتاجت له بكل القوة والطاقة اللتين استطاع قلبها أن يشعر بهما.

حين كانت في صحبته، كانت مزهرة، أما بعيداً عنه فقد خافت كثيراً من الانهيار والموت. كانت خسارته في المرة الأولى أمراً فظيعاً؛ ولم تكن لديها أدنى فكرة عن مصيرها إن هو غادرها مرة ثانية.

ـ من الواضح أن والدتك لا تشارك والدك رأيه السيء بي.

وافقت إيندیا على ذلك قائلة: «إنها لا توافق والدي في اهتمامه باسم العائلة وبمركزها. لقد دفعها والداها إلى الزواج بوالدي. كان ذلك زواجاً مدبراً إلى حد ما بين عائلتين من أكبر العائلات في البلاد وأهمها».

ـ لكنها تمكنت من إنجاح هذا الزواج، فهي أصبحت تحبه الآن.

تسللت نبرة جديدة إلى صوت «إيدان»، نبرة لم تسمعها قط من قبل.

ـ آه، نعم.

وأضاءت ابتسامة مفاجئة وجه «إيندیا»، فأضافت: «لقد كبرت على حبه، بالرغم من صفاته، هذا ما تقوله دائماً. إنه ليس من الرجال الذين يسهل التقرب منهم. فهو لا يملك في قاموسه المفردات العاطفية التي تساعده في التعبير عن مشاعره».

وخطر لها أنه يشبه «إيدان» من هذه الناحية، مستحضرة في ذاكرتها كيف أنه كان يمانع في كشف أيّ تفاصيل شخصية لها.

قال «إيدان» بفظاظة: «القليل من الرجال يملك ذلك. لكن ماذا سيحدث الآن؟».

ـ الآن؟

جعلت المفاجأة رأس إيندیا يستدير بسرعة. لكن أياً من العواطف المستترة في

عمق هاتين العينين، لم يكن تسهل قراءته ويتحقق تفسيره.

- حين تكتشف أمر المقامرة، والديون.

- أعتقد أنها ستتخطى الأمر.

لكن قلب إيندیا اعتصر بألم أثناء كلامها. فقد تمكنت لفترة وجيزة من الوقت من نسيان الأحداث التي جرتْ الأسبوع الماضي، والسبب الحقيقي وراء وجود «إيدان» هنا. لكأن العاطفة التي اختبرتها للتو طردت من ذهنها كل فكرة عن السيطرة التي يملكها عليها وعلى عائلتها.

- إنها تحبه كما هو.

وازدادت نبرتها حدة من الحزن الذي ألم بها، وتابعت:

- لا أظنها كانت قط تعيش في وهم في ما يتعلق به.

- وماذا عنك أنت؟

- إن كنت حقاً تحب أحداً ما، فإنك تقبل به كما هو.

لم تعلم كم كانت تلك الكلمات حقيقية إلا بعد أن نفوهت بها. وأضافت: «الثؤلول وكل شيء، كما عبَّر عن ذلك أوليفر كرومويل».

وهي تقبل «إيدان» بهذه الطريقة كذلك، وبإمكانها حتى مسامحته على الطريقة التي عاملها بها. مع ماضٍ كماضيه هو، كان من الطبيعي ألا تكون فكرة الزواج أمراً يروق له. فقط لو أنها عرفت ذلك من قبل، لما كانت استعجلت الزواج بهذه الطريقة، ولكانت أعطته الوقت الكافي ليعرفها أكثر، وليحبها...

حبّ... كانت هذه الكلمة الأساسية، التي تمس كل شيء. لو أن «إيدان» أحبها، لكانت قادرة على مواجهة أي شيء، والتسامح في أي شيء. ألم يسبق لها في الواقع أن فعلت ذلك دون أن يطلب منها، فقط لأنها أحبته؟

لكن ماذا كان يشعر هو نحوها؟

- وعلى أيّ حال، أنت مخطىء في ما يتعلق برأي والدي بك. ففي يوم زفافنا، كان قد تقبل فكرة زواجنا. في الواقع، كان في النهاية سعيداً جداً.

- أراهن على ذلك.

كان «إيدان» يربط حذاءه. وأظهرت القوّة التي شد بها الشريط، حدة التهكم

الذي أدخله في كلامه. وعند سماع ذلك، قطبت إيندیا وجهها بارتباك، وقالت.

- وماذا يعني هذا تحديداً؟

سخر «إيدان» من سؤالها: «آه، هيا أيتها الأميرة!».

عكست خطوط وجهه موقفاً غير ودي، وانعدمت الرحمة في عينيه، وأضاف: «لا يعقل أنك لا تدركين أن والدك كان يعرف حق المعرفة أين تكمن مصلحته، وأنه كان عازماً على الاستفادة من ذلك. كان مستعداً لتجاهل أني لست متحدراً من عائلة مناسبة، حين أدرك كم من المال النقدي سأضع في خزنة العائلة».

- لا...

لقد تحول والدها من الرفض الكلي لفكرة زواجها، إلى تقبل الوضع بشكل مفاجىء وغامض. في الواقع، بدا متحمساً لذلك، وبدأ بصرف الأموال الطائلة على الزهور وحفل الاستقبال. أموال، عرفت الآن أنه لم يملكها قط بالفعل.

تكلمت بصوت أجش: «كم هو المبلغ الذي أقرضته إيّاه؟».

وأجفلت حين قام «إيدان» بذكر المبلغ الذي بدا كأنه رقم هاتف. وكان صوته مشبعاً بالاحتقار.

- هذا القدر؟ وقد دفعته له!

- بدا لي حينها أن الأمر يستحق ذلك.

لا عجب في أنه ظنها قادرة على القيام برهان الزواج ذلك مع صديقتها «جاين». ولا عجب أنه ظنها ابنة والدها بتفوق، بحيث أنها حاولت أن تغنم منه كل فلس استطاعت الحصول عليه. وهذا ما جعله يقبل مطالبة والدها بهدية مالية دون اعتراض، ظناً منه أنها هي من حرضه على ذلك.

- إذن، فإن الاتفاق الذي سبق الزواج كان حقيقياً.

لم يكن صوتها سوى طيف من صوت. وما قالته لم يكن سؤالاً، بل تصريحاً، لأنها عرفت الجواب. وراحت تلتقط الزهور بعصبية عن العشب، وتجمعها في رزم صغيرة في يديها. فقال لها «إيدان»:

- مهما يكن رأيك بي أيتها الأميرة، فأنا لم أكذب عليك قط.

لم يكن ما قاله سوى الحقيقة كما كانت تعلم. وإن لم تكن قد صدقت ذلك بعد، فإن القوة الفجة في نبرته كانت ستقنعها على الفور.

ـ آه، يا إلهي، إيدان... ما أشد أسفي!

حدق «إيدان» في وجهها بصمت لفترة طويلة، وكانت عيناه شاردتين بشكل غريب. لكنه ما لبث أن بدأ يضحك بقسوة مذهلة:

ـ أتعلمين أيتها الأميرة؟ كدت للحظة أصدقك في الماضي. فقد كنت مقنعة جداً.

ـ لأني كنت صادقة في ذلك!

اقتربت منه لتلتقط يده، فما كان منه إلاّ أن أبعدها بحركة سريعة لا مبالية، وقالت:

ـ لم أكن على علم بما يفعله والدي؛ لم تكن لدي أدنى فكرة! لكني الآن وقد عرفت، فإن ذلك يساهم في توضيح الأمور. أعتقد أني أعرف الآن لماذا تصرفت على هذا النحو.

ـ هل تعرفين حقاً؟

لم تتمكن من تفسير النبرة المستترة في سؤاله، ولم تفهم ماذا عنى بها. لذلك تابعت كلامها كما لو أنه لم يقل شيئاً:

ـ لا أستطيع سوى التساؤل عن السبب الذي جعلك تأتي إلى الكنيسة في الأصل.

ـ صدّقيني، أنا أيضاً كنت أطرح على نفسي هذا السؤال في بعض الأحيان. ربما أردت التمتع بالنظر إلى وجهك الجميل للمرة الأخيرة... وإلى تأمل المرأة التي أرغب فيها رغبة تكاد تقتلني.

كان الألم الذي سببته هذه الملاحظة شديداً، مما دفع إيندا للوقوف على رجليها بعد أن عجزت عن الجلوس إلى جانبه أكثر من ذلك. فباشر «إيدان» بإعادة توضيب الطعام والأطباق في السلة. وكانت حركاته تعكس فظاظة ملاحظته السابقة.

ـ لا يمكنك أن تتوقع مني قبول ذلك! لو كنت ترغب في إلى هذا الحد لأتممت

الزفاف على أي حال، ثم كان بإمكانك أن...

أطبقت يدها بإحكام على الزهور التي كانت تحملها، فسحقتها بعنف حين اختنق صوتها في حنجرتها، كما لو أنه يذبل تحت وقع النظرة القوية المستعرة التي حدج بها وجهها الشاحب.

ـ الحصول عليك كلما أردت ذلك؟ أهذا ما كنت تحاولين قوله يا جميلتي «إيندا»؟ لقد خطرت الفكرة في رأسي، لكن ذلك كان يعني سلوك الطريق الأسهل.

ـ الأسهل...

هزت إيندا رأسها بعجز. إن أياً من ذلك لا يتطابق مع ما قاله من قبل. فقد أعلن أنه أتى إلى الكنيسة وهو لا يزال عازماً على الزواج بها، وأن الحصول عليها كزوجة له هو من أقطع الأمور التي كان سيقوم بها.

ـ لم ترد قط سوى الانتقام، تماماً كما تفعل الآن. فكما يقولون، إن الانتقام هو طبق من المستحسن تناوله بارداً. لكني ما كنت أعتبر الأمر يستحق الانتظار لهذه الفترة الطويلة.

وأدركت بعد حين كيف أن أصابعها المتوترة تمزق الزهور في يديها، منتزعة أوراقها الرقيقة في محاكاة ساخرة غاضبة للخرافة القديمة «يحبني... لا يحبني...»، فجمدت أصابعها بسرعة، خوفاً مما قد يعني ذلك.

تدخل «إيدان» بحصافة بغيضة قائلاً: «لديك ميل خطير للمبالغة. لم أكن أستطيع التنبوء بسهولة بأن والدك سيصاب بنوبة قلبية تماماً قبل أن يستحق دفع ديونه».

فقالت إيندا بمرارة: «لا أظنك قادراً على ذلك. لكن الأمر كان بلا ريب بمثابة كسب غير منتظر لك».

ـ فلنقل إن ذلك جعل الأمور أسهل بكثير.

ـ أراهن على ذلك! فإن هذا يعني أنك، بابتعاد والدي عن طريقك، حصلت على الوسيلة التي تحتاجها للانتقال إلى المنزل والاستيلاء عليه!

انتفض قلبها بعصبية حين انقبضت يدا «إيدان» على الطبق الذي كان يلتقطه،

وجعلت انفعالاته القوية مفاصل أصابعه تبدو بيضاء اللون. وزمجر غاضباً بشكل مفاجىء قائلاً:

ـ هل خطر لك يوماً أن والدك قد يكون معي أحسن حالاً منه مع بعض الأشخاص الآخرين الذين أعرفهم؟ فمنهم من لم يكن ليعطيه تلك الأشهر الستة دون فائدة، ولم يكن لـ . . .

قاطعته إينديا بحدّة: «دون فائدة! لم تقل أي شيء قط عن هذا الموضوع من قبل».

وحين رأت الملامح التي عبرت وجهه ووميضاً من مشاعر جديدة أضاء عينيه، علمت «إينديا» أنه ما قصد قط أن يزل لسانه ويطلعها على هذه الحقيقة تحديداً لكنه فعل الآن، فجعلت هاتان الكلمتان البسيطتان الميزان يختل من جديد.

ـ حسناً، هناك شيء واحد أكيد، وهو أن المال الآتي من الاتفاق قبل الزواج، هو لك بكل فلس منه!

ـ لتسدّدي ديون والدك.

تلاشى غضب «إيدان» فجأة كما انفجر فجأة. فبدت كلماته الآن منضبطة ببرودة. وأضاف: «لا بد أنك تحبينه كثيراً».

ـ لا، ليس لتسديد أي شيء! لا أستطيع قبول ذلك المال، «إيدان». لن يكون ذلك منصفاً. فأنا لم أطلب يوماً من والدي أن يعقد معك أي اتفاق، ولن أستغل تصرفاته. يجب أن تستعيده كله.

قاطعها «إيدان» بقسوة: «إينديا لا داعي لذلك! فقد وهبت ذلك المال لك. ولم أفتقده مالياً قط. كان يجب منذ البدء أن يكون لك أنت وأريد منك أن تأخذيه».

ـ حسناً، أنا لا أريده! خاصة حين أعرف كيف تم الحصول عليه.

ـ حسناً، يمكنك أن تفعلي به ما تشائين، لكني لن ألمس أي فلس منه. وإن حاولت أن تعطيني إياه، فسأحرق الشيك وأعيدك إلى الحضيض.

كان في كلامه نبرة عادية تخلو من المشاعر، لكنه بالرغم من ذلك، عكس تصميماً وعزماً تركا إينديا في حالة من اليقين التام في أنه يعني كل ما يقول.

ـ إذن ماذا سيحصل الآن؟

ـ الآن؟

كان «إيدان» قد فرغ من توضيب الأغراض، فوقف على رجليه ملتقطاً البساط ليطويه بترتيب.

قبل لحظات فقط، خطر لها أن الأمور يمكن أن تسامح وأن تنسى، فقط إن قال لها «إيدان» إنه يحبها. الآن عرفت أنها كانت تخادع نفسها ليس إلا. فهو لن يقول أبداً أي شيء من هذا النوع. وقد باتا الآن بعيدين عن بعضهما البعض أكثر من أي وقت مضى، حتى أكثر من تلك اللحظة التي استدار فيها وابتعد عنها في يوم زفافهما.

ـ أعتقد أن ذلك يتوقف عليكِ.

ـ عليَّ أنا؟

أومأ «إيدان» برأسه ببطء، ولكنه تحكم بتعابير وجهه بشدة وهو يرمي البساط المطوي على سلة الطعام. وعاد الدرع المنيع مرة أخرى إلى مكانه بأمان، دون أن يظهر أي شق أو صدع على سطحه الحصين البراق.

ـ أنا مستعد لقبول فكرة أنك لم تعرفي شيئاً عن المال الذي اقترضه والدك مني قبل الزواج. وإن كانت فكرة الرهان الذي قمت به مع صديقتك مجرد مزاح، كما تدعين . . .

اعترضته إينديا بسرعة: «لقد كان كذلك! صدقني، كان كذلك!».

لم تتساءل إن استعجلت في ردها إلا حين توقف «إيدان» عابساً ومقطباً حاجبيه الداكنين. لم تتمكن من تحديد السبب، غير أن الشك راودها في أن هناك المزيد بلا ريب، هناك أمور أساسية لم تقل، لكن لم تكن لديها أدنى فكرة عن ماهيتها.

ـ أنا . . . هناك أمر واحد يجب أن أعرفه في البدء.

ـ وما هو؟

ـ والدي، المال الذي يدين لك به، وكل ما عداه. هل الطريقة التي ستعامله بها تتوقف على . . . ؟

ـ على الطريقة التي تتصرفين بها؟

أنهى «إيدان» عنها حين تعثرت بكلماتها. وهز رأسه ببطء، وقد حجب عينيه جفناه الثقيلان ليستر أفكاره عنها.

ـ هذا بيني وبينك فقط، أيتها الأميرة. ما من أحد آخر له أي شأن به.

بيني وبينك فقط. بدت كلماته مطمئنة بشكل غير متوقع. لربما تمكنا بهذه الشروط من المحاولة مجدداً. لربما تمكنا، هما الاثنان فقط، دون أي تدخل من قوى خارجية كوالدها، من إعادة اكتشاف الأمور التي جمعتهما معاً في الأصل.

ـ لكن، هناك أمر واحد أريد أن يكون واضحاً لديك. أنا لا أتحدث عن الزواج. فما من شيء من هذا القبيل يتوقع حدوثه. أنا لا أرتكب الخطأ نفسه مرتين.

كانت كلماته بالقسوة والصلابة اللتين ميزتا ملامحه. إن مجرد الاستماع إليه، كان كما لو أنها تضرب رأسها بحائط قرميدي شديد الصلابة والقسوة. ولن يجدي الرد أو الاعتراض نفعاً. فهو، ببساطة، لن يستمع إليها.

ـ أنا لا أطلب الزواج.

تمكنت إيندیا من الكلام، مستخدمة كل ما تملكه من رباطة جأش بغية الحفاظ على نبرة عادية. فعلى الأقل، يظهر كلامه شيئاً واحداً، هو أنه كان يشعر بشيء ما نحوها، وأنه لم يكن غير مبال بها كلياً.

لكنها كانت تسمع صوت «إيدان» يتردد في رأسها، والطريقة التي تكلم بها عن والديه، وعن الرغبة المتبادلة التي جمعتهما معاً إلى أن فرقهما عدم قدرتهما على الحب.

قالت:

ـ لا أريد الزواج أنا أيضاً.

وهي تعلم أنها كاذبة. لن تكون قط سعيدة حقاً. لكن، إن هي تركته يرى ما تشعر به حقاً، فإنه سيتراجع ويبتعد عنها ويرفضها بشكل نهائي. وإن فعل ذلك، فإن حياتها ستدمر كلياً. وما من طريقة تستطيع بها أن تملأ الفراغ الذي قد يخلفه وراءه.

لم يكن هناك إذن أي قرار لأخذه في النهاية. فهي كانت تعلم في قرارة نفسها أنها لا تملك خياراً آخر سوى المضي مع «إيدان» بشروطه. فإما أن تقبل بهذا، أو لا تحصل على شيء إطلاقاً.

***

www.elromancia.com

١٠ ـ الذئب الأعزب

ـ «إيدان»، لدي شيء لك.

كان صوت إينديا مضطرباً كيديها، اللتين كانتا تقبضان بقوة على العلبة التي كانت تحملها، في محاولة لإخفاء ارتعاشهما.

ـ لي أنا؟

إن كانت تشعر بالتوتر من قبل، فإن شعورها تفاقم الآن حين استدار رأس «إيدان» الداكن عن الأوراق المنتشرة على الطاولة أمامه.

لقد اختارت بحذر هذه اللحظة لتفاتحه في الموضوع في الوقت الذي كانت والدتها وشقيقها في المستشفى. لكنها الآن باتت في شك من حكمتها في هذا القرار. فمنذ اليوم الذي أمضياه في النزهة معاً، أصبح البقاء مع «إيدان» في المنزل وحدهما أشبه بالسير على حبل مشدود غير ثابت على الإطلاق فوق نهر متدفق بعنف.

ـ وما الذي فعلتِه لأستحق هدية؟

ـ حسناً! إنه شيء أريد بالأحرى إعادته إليك.

جهدت «إينديا» لتجاهل نبرة السخرية الشريرة التي غلبت على صوته. وأضافت:

ـ كان عليَّ القيام بذلك منذ وقت طويل. لكني لم أشعر قط أن الوقت ملائم قبل الآن.

وضعت الرزمة على طاولة المكتبة بحركة خرقاء ثم تراجعت فوراً إلى الوراء بخطوات سريعة. حدق «إيدان» إلى الرزمة مقطباً حاجبيه وأخذ يتفحص العلبة الملفوفة بورق بني. تصلب جسده الطويل بحدة حين أمسك البطاقة التي دون

عليها العنوان، وكان اسمه عليها، والطوابع مرمزة بختم البريد منذ سنة خلت. وقد خربش على هذه البطاقة بقسوة وكتبت إلى جانبها هذه الكلمات: «ترجع إلى المرسل».

أومأت إينديا برأسها قليلاً وعيناها المتسعتان الثاقبتان تعلوان وجهها. وقالت له:

ـ أرسلتها لك حين تخليت عني.

وقد أعاد إرسالها إليها بالبريد، أو بالأحرى قامت سكرتيرته بذلك بناء على تعليماته. علمت إينديا ذلك لأنها تسلمته في الأصل وقد أعيد تغليفه بدقة، مع ملاحظة لطيفة تناقض العدائية التي اتسمت بها الكلمات المدونة على الورقة الأصلية.

قال «إيدان»: «لم أكن أريد أي شيء منك».

ضحكت «إينديا» قليلاً بحدة غاب فيها أي أثر للمرح. وقالت:

ـ كان هذا ما شعرت به أيضاً. لذلك أرسلت لك هذه الأشياء. إنها ليست لك، بل هي منك.

ـ ماذا؟

ازداد تجهّم وجهه، واقترب «إيدان» من الرزمة وانتزع الورقة عنها. كانت حركاته قاسية، فهز العلبة المفتوحة حتى وقعت محتوياتها على الطاولة بفوضى عارمة.

مرّت لحظة صمت مطبق وهو يتفحص الأغراض المتنوعة، وارتسمت على وجهه ملامح غامضة وغير مقروءة.

ـ كل شيء.

همس بصوت منخفض أجش كما لو أنه يكلم نفسه، وأضاف: «كل شيء لعين قدّمته لك يوماً».

قاطعته «إينديا» بتعثر: «باستثناء الورود طبعاً».

لكن «إيدان» لم يكن يستمع إليها. وامتدت أصابعه الطويلة إلى مجموعة الهدايا، ثم انقبضت فجأة على غرض واحد محدد بحركة خاطفة جعلت أعصابها

تنتفض جزاء ذلك. ولم تستطع النظر في عينيه حين فتح علبة الخاتم بيد واحدة.

ـ أعتقد أنه من المقبول أن تحتفظ الخطيبة المهجورة بالخاتم.

بدت كلماته كأنها مصنوعة من الجليد. فقالت «إيندیا» بشدة:

ـ ليس بالنسبة إليّ. لا! خاصة ليس الآن! لقد استغل والدي خطوبتنا كفرصة ليأخذ منك كسباً بطريقة خاطئة. كان ذلك جشعاً وأنانياً، ولا أريد أن تأخذ عائلتي منك أي شيء بعد. اشتريت لي هذه الأشياء حين كنت سأتزوج بك. أما الآن، وليس شيء يجمعنا...

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء!

كررت الكلمة عمداً مشددة عليها بقوة لتطرد الأفكار المزعجة التي أوحى بها هذا السؤال.

أبقت عينيها محدقتين بتصميم على الطاولة، لعلمها أن رؤية وجهه وحاجبه الذي سيكون مرفوعاً في تساؤل ساخر، سيدمرانها.

ـ هذه الأشياء بعيدة جداً عن أن تسدد جزءاً بسيطاً حتى من المال الذي ندين لك به، لكنها على الأقل ستفعل شيئاً ما. ستخلص ضميري بعض الشيء.

قال «إيدان» ببرودة: «أردتك أن تحتفظي بها حين ابتعتها لك».

ـ لكن يجب أن تعرف أني لا أستطيع فعل هذا الآن! فهناك بعض المجوهرات الثمينة هنا.

ـ بصراحة، المال لا يهمني.

ـ لكن المسألة ليست فقط مسألة مال! ألا ترى أني ما كنت لأتمكن من العيش بسلام مع نفسي إن لم أفعل شيئاً، مهما يكن صغيراً؟ أريد منك أن...

خانها صوتها، وتحول إلى صرير مؤلم حين رمى «إيدان» علبة الخاتم فجأة ودفع جانباً ساعة أنيقة ليلتقط شيئاً جديداً مختلفاً تماماً.

كان أحد الأغراض المكومة على الطاولة، مغلفاً بورق للزينة. فقالت بحدة: «هذا لك أيضاً. حسناً، هيا. افتحه!».

لم تحتمل النظر إليه وهو يمزق الغلاف الورقي؛ فلم تعلم أنه فتح العلبة إلا من

الصمت الذي خيم فجأة، ومن السكون الذي أحاط بالرجل الواقف إلى جانبها.

ثم قال «إيدان» أخيراً: «اللوحة المائية، لقد اشتريتها» كانت كلماته متقطعة بطريقة غريبة.

لم تستطع إخفاء مرارتها وهي تقول:

ـ كان من المفترض أن تكون هدية الزواج.

كانا قد رأيا هذه اللوحة في واجهة أحد متاجر المفروشات الأثرية قبل الزواج مباشرة، فأغرم «إيدان» بها. كان يريد شراءها، لكن المتجر كان مغلقاً لأن صاحبه كان في عطلة. فتسللت «إيندیا» سراً إلى المتجر بعد ذلك ما إن علمت بأنه عاد وفتح أبوابه، وذلك حين كان «إيدان» في لندن. فاشترت اللوحة وخبأتها، وعزمت على تقديمها له في ليلة زفافهما، وادعت طوال الوقت أن أحداً ما سبقها واشتراها.

ـ لكنك غير قادرة على تحمل كلفتها.

فقالت له بصوت هش: «لقد تدبرت الأمر».

تطلب شراؤها كل فلس من مدخراتها، لكنها لم تكن مستعدة للاعتراف بذلك.

وتابعت: «والآن، تستطيع الاحتفاظ بها كدفعة جزئية من المبلغ الذي ندين لك به. وإن كنت محظوظاً، فستجد ثمنها قد تضاعف كثيراً خلال السنة».

ـ لا أستطيع...

ـ آه، بلى تستطيع. يجب أن تفعل.

كان عليها القيام بشيء ما لإخفاء اضطرابها. فاستغلت الفرصة الوحيدة المتاحة أمامها، وتحركت باندفاع واقتربت من الطاولة ونظرت إلى الأوراق المنتشرة عليها تلامسها بأطراف أصابعها.

بعد برهة، شعرت بشيء ما أثار فضولها، وركزت انتباهها كلياً على خرائط المنزل. كانت التحسينات التي كان «إيدان» قد بدأ بها، موسومة بعلامات واضحة. كما لاحظت كذلك مشاريع أخرى أكثر طموحاً.

ـ بركة سباحة، «إيدان»؟.

حاولت أن تجعل صوتها يبدو عادياً، لكنها نجحت فقط في جعله ماكراً

وهشاً، وتابعت: «أليس في ذلك بعض المبالغة؟».

ـ على الإطلاق.

كان مدركاً تماماً نهجها المضلل المتعمد.

ـ هناك متسع من المكان لإحداها في الخلف حيث ستتمتع بخصوصية تامة. كما اعتقدت أنها ستكون مثالية لوالدك حين يعود إلى المنزل. سيحتاج لفترة نقاهة، وأنا متأكد من أنهم سينصحونه ببعض التمارين الخفيفة... لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟

ـ أجد من الصعب تصديق ذلك. هل تفعل شيئاً مماثلاً من أجله؟

صحّح «إيدان» كلامها بشدة: «ليس من أجله إينديا، بل من أجل والدتك. لقد أصبحت معجباً بها إلى حد بعيد... فقد كرست نفسها لوالدك دون أنانية ودون أن تتذمر أو تشفق على نفسها، حتى عندما تكون مرهقة بوضوح إلى حد لا تقوى معه على الوقوف على قدميها. للمرة الأولى في حياتي، بدأت أصدق أن أموراً مماثلة، كالحب الحقيقي موجودة فعلاً».

تطلب الأمر من «إينديا» كل رباطة جأشها لكي لا تجفل من الخارج كما من الداخل، ولكي لا تظهر الألم الذي سببته لها تلك الملاحظة الأخيرة الباردة. إن لم يكن فعلاً يؤمن بالحب قط، فهذا يعني أن طلبه الزواج بها كان يقوم على أسس أخرى، ولم تكن تشك قط في ماهية الدوافع التي كانت تكمن خلف ذلك.

ألم يقل مرّة بفظاظة وقسوة: «لقد أردتك، وأنت أردتني». «كنت مستعداً لفعل أي شيء». أي شيء، حتى طلب الزواج بها.

لكنها لم تنس قط القصة المروعة التي أخبرها إياها عن والديه. قالت:

ـ أعتقد أنك لم تحظ تماماً بفرصة كافية لتتعلم الحب من والديك. كم كنت تبلغ من العمر حين توفيا؟

ـ كنت في الخامسة عشرة من عمري تقريباً.

كانت كلماته خالية من أي عاطفة وعيناه متكتمتان محجوبتان. أضاف:

ـ أصبحت عنيفاً جداً لبعض الوقت. وكنت أتهرب من أداء واجباتي، وألوذ بالفرار من كل بيت للرعاية يضعونني فيه. وتسكعت مع بعض عصابات

الشوارع، وزجيت بنفسي في المتاعب مع الشرطة. آه، أجل...

التقط تعابير وجهها، فابتسم ابتسامة مقيتة باردة جمدت الدم في عروقها. وتابع:

ـ بالعودة إلى تلك الفترة، فقد استحقيت كل كلمة من السمعة التي اكتسبتها. كنت أعتقد أن العالم مدين لي بشيء، وكنت عازماً على الحصول عليه بأي طريقة. لكني سرعان ما أدركت أني كنت أخسر الكثير بمواصلة حياتي بهذه الطريقة.

دفع «إيدان» بيديه الاثنتين بقسوة في شعره الداكن البراق، فعكست حركته هذه بوضوح مشاعره الداخلية الدفينة أكثر بكثير من تعابير وجهه المضبوطة بحذر، ومن عينيه المغلقتين.

ـ رأيت أني كنت أسمح لإرث والدي من الفوضى أن يتسلل إلى حياتي ويفسدها، تماماً كما حطم حياتهما. لذا، وقفت على قدمي بعزم وصلابة، معاهداً نفسي على صنع مستقبل باهر.

ـ لقد فعلت ذلك بالتأكيد. لديك كل شيء...

تساءل «إيدان» بتهكم، وهو يرمقها بنظرة ساخرة شريرة: «كل شيء؟».

ـ حسناً، لقد جمعت ثروة. لن تضطر قط للعمل ثانية إن لم ترد ذلك. والآن، حصلت على منزل ريفي ممتاز، تقوم بترميمه ليبدو تماماً كما تحب.

ـ أنتِ سهلة الإرضاء إن كنت تظنين أن هذا هو كل شيء.

استتر شيء خطير خلف كلماته، شيء قاتم ومنذر بالسوء، تماماً كالصخور الخشنة في قعر المياه الساكنة ظاهرياً، بانتظار الانقضاض على قلب مركب مار.

ـ بالرغم من ذلك، على الاعتراف بأني كنت كذلك أؤمن بشيء مماثل ذات مرة. فإن لم يكن للحب أي وجود، فسأبادله بشيء حسي أكثر، شيء أستطيع في الواقع أن أراه، لأعرف أنه حقيقي، وليس مجرد جزء من خيالات الناس الرومنسية. فوطنت نفسي على جمع ثروة. وحين فعلت ذلك وجدتني أجمع ثروة أخرى. ونعم، أعترف بأني اكتسبت سمعتي في هذا المجال أيضاً. أنا أعرف ماذا يدعونني.

الـ «لون وولف»، (الذئب الأعزب). تردد صدى الكلمات في رأس إينديا.

فقد استعملتها بنفسها تكراراً لتشير إلى «إيدان»، لكنها الآن وجدت نفسها فجأة تشدد على كلمة «لون» (أعزب) أكثر مما تشدد على كلمة «وولف» (ذئب).

- بإمكانك تغيير ذلك بسهولة.

تطلب الأمر منها كل قوتها لتتلفظ بهذه الكلمات.

- تعنين أن أتزوج؟ لا أظن ذلك. فمع المثل الذي تركه لي والداي، قطعت عهداً على نفسي بأني لن أتزوج أبداً إلا بامرأة أعرف أني أحبها، وأنها تحبني في المقابل. امرأة أستطيع معها أن أبني مستقبلاً حقيقياً، وعلاقة عميقة كتلك التي تجمع والدتك بوالدك. لن أقبل بأقل من ذلك. ارتكبت هذا الخطأ في المرة الأولى، وندمت عليه منذ ذلك الحين.

كانت كلماته هادئة كل الهدوء وواقعية تماماً. ولم تتضمن عبارة «في المرة الأولى» أي عاطفة... شعرت إينديا بفظاظة الكلمات التي مزقت قلبها كمخالب ضارية. لم تعد بحاجة إلى البحث أبعد من ذلك عن التفسير الحقيقي للطريقة التي تخلى بها عنها في يوم زفافهما.

لم يحبها قط بالفعل. لقد ظن أن بإمكانه المضي قدماً بذلك. لكن، في اللحظة الأخيرة، عاد شبح زواج والديه ليظهر من جديد ويجعله يدرك الخطأ الذي كان على وشك ارتكابه.

***

كانت سخرية «إيدان» الباردة مدمرة حين قال:

- إذاً، لقد اتفقنا على أني لست من هواة الزواج.

وأضاف:

- لكن، ماذا عنك؟ ستتزوجين بالتأكيد. سترغبين في الأولاد.

ارتجف الدم برداً في عروق «إينديا» حين تذكرت كيف أن هذا الموضوع نفسه طرح بينهما مرة من قبل، حين سألته إن كان يريد عائلة، وجعلت تلك الذكرى صوتها يرتجف وهي تجيب:

- قد أرغب في الأولاد، اثنان على الأقل.

كانت صورة صبي وفتاة يشاركان «إيدان» بشعره الداكن وعينيه البنيتين

الغامقتين، من الحدة والتلهُّف في ذهنها بحيث شعرت بشكل حاسم وأكيد بأنها ستصل إليه عن طريق نوع من التخاطر الغريزي. لكن ملاحظته الأخيرة أكدت لها أن أفكاره كانت تدور في فلك آخر مختلف كل الاختلاف.

- مع جيم؟

- لا، ليس جيم.

عجزت عن منحه ما هو أقل من الصدق التام. وقالت:

- أنا مثلك، طالما آمنت بذلك الحب الحقيقي الخاص.

كان «إيدان» يدوس الخرائط على الطاولة، لكنه الآن رفع رأسه ببطء، وقال:

- وجيم ليس من تحبينه؟ أنا أعترف أن ذلك لا يفاجئني. بصراحة، طالما لاحظت أنه قليل الحماسة بعض الشيء.

كانت النبرة العادية التي رمى بها ملاحظته أشد أذى من أي هجوم شرس. لو كان يكرهها، كما اتهمته مرة، أو ظن بها السوء، لامتلكت على الأقل سلاحاً تحاربه به. لكن اللامبالاة التي كان «إيدان» يظهرها، كانت تسحب منها كل قواها العاطفية وتتركها كبالون تم إفراغه من الهواء.

- أعتقد أني لجأت إليه بحثاً عن المؤاساة. فقد كنت أشعر بالوحدة.

قال «إيدان» بشكل غير متوقع:

- أنا آسف. لقد آذى أحدنا الآخر، أليس كذلك أيتها الأميرة؟

- لكننا تعلمنا الكثير ربما في أثناء ذلك.

- مثل ماذا تحديداً؟

- حسناً، أننا لم نتواصل كما يجب.

ألم يتمكن من معرفة ما كانت تحاول قوله؟ ألم يتمكن من الشعور بالحب والتوق في عينيها؟ ألم يكن يستمع إلى ما قالته؟

- أنت على حق. نحن لم نفعل.

وقفت نظرات «إيدان» على وجهها متأملاً ثم وجدت إينديا نفسها فجأة قادرة أخيراً على سحب نفس عميق متقطع. وحين اصطدمت عيونهما، أصدر صوتاً من حنجرته، لم يكن تعبيراً عن السخط ولا الاستسلام بل مزيجاً مقلقاً من الاثنين.

فدمدم بتثاقل:

ـ آه، اللعنة!

اقترب منها بقسوة، وبخطوة خرقاء تقريباً وجذبها إليه وعانقها بما أوتي من قوة وكأنه كان يريد أن تسحقها ذراعيه لتصبح جزءاً منه.

لم تتمكن إينديا سوى من التجاوب معه. وتوقفت عن التفكير.

كانت بدا «إيدان» دافئتين على كتفيها ووضعت رأسها على كتفه، ثم عادت أفكارها بصمت إلى المحادثة التي دارت بينهما. وحين أتتها أخيراً القوة للكلام رفعت رأسها ونظرت إلى وجهه، فقالت بتردد:

ـ إيدان... ماذا تنوي أن تفعل مع والدي؟ أريدك أن تعرف أني ممتنة لك جداً. لا أعلم كيف ستتمكن قط من تسديد ما لك علينا.

ـ تسديد؟

جزعت حين سمعت صوته وقد احتد بقسوة. وظهر توتر جديد عليه، وأصبحت نبرته مختصرة وجافة.

ـ ممتنة! تسديد!

كرر هاتين الكلمتين وقد غلف كلاً منهما بعنف مميت كان مخيفاً بطريقة ما.

وفيما كانت تبحث عن كلمات لتشرح له قصدها، تناهى لهما صوت سيارة آتية في الممر. فقالت:

ـ إنها والدتي! لقد عادت باكراً.

كانت بعيدة عنه، حين فتح الباب الرئيسي وسمعت صوت «ماريون مارشنت» المتحمس:

ـ «إينديا» حبيبتي! لدي أخبار رائعة! لقد تحسنت حال والدك كثيراً. ويقولون إنه سيعود إلى المنزل قريباً.

ـ هذا رائع!

بذلت جهداً لمحاكاة سرور والدتها. فمن الواضح أنها كانت ستفيض ابتهاجاً لعلمها بأن والدها قد تحسنت صحته، لكن أحداثاً أخرى مزعجة كانت تحتل حيزاً كبيراً من تفكيرها.

ـ نأمل أن يكون ذلك في عطلة نهاية الأسبوع. بالطبع، سيتطلب الأمر عملاً طويلاً وبطيئاً قبل أن يستعيد عافيته كاملة، لكن، آه!

نبهها التعجب المفاجيء الذي ظهر على والدتها، فلحقت بنظراتها لترى ما الذي أوقف حديثها في منتصفه.

توقف قلبها عن الخفقان من الصدمة، وفرغت رئتاها من الهواء تماماً، لأن نظرها وقع على العلبة الزرقاء الصغيرة التي ما زالت على الطاولة حيث ألقاها «إيدان» وكان الغطاء مفتوحاً ليكشف الخاتم الماسي البراق في داخلها.

ـ آه، «إينديا»! هل هذا يعني ما أفكر فيه؟

تنقلت عيناها المحدقتان من إينديا إلى «إيدان» وبالعكس، وقد أضاء فيهما شعاع من الإثارة والأمل. وأضافت:

ـ أرجوك، قولي إن هذا صحيح! فإن ذلك يصلح الأمور كلها.

ـ نحن...

بدأت «إينديا» بالكلام لكنها عجزت عن متابعته ووجدت نفسها عاجزة عن التفكير، إن لم نقل تركيب أي إجابة ممكنة. فتدخل «إيدان» بسرعة قائلاً:

ـ تم اكتشاف أمرنا، أيتها الأميرة.

كان صوته ناعماً رقيقاً، تماماً كالابتسامة التي رسمها على وجهه، محذراً إياها بصمت من تكذيبه.

لم يكن بحاجة لأن يقلق، لأنها الآن تبدو وكأن عقلها توقف عن العمل. وأصبح كل شيء غير مفهوم على الإطلاق. لا يمكنه أن يعني...

لكن، يبدو أن «إيدان» عنى تحديداً ما كانت تخشاه أكثر من أي شيء آخر، فقال برقة:

ـ علينا أن نعترف الآن، حبيبتي. أعلم أنك كنت تفضلين الانتظار، لكن والدتك كشفت سرّنا.

اقترب منها لتنسل إحدى ذراعيه حول خصرها، والتفت نحو «ماريون» وتعابير وجهه الرصينة المتزنة تعكس صدقاً واضحاً. وقال:

ـ طلبت من «إينديا» أن تتزوج بي، وأن تمنحني فرصة ثانية لكي أسعدها.

قد تبدو تلك القبضة الممسكة بخصرها طبيعية ولطيفة ومحببة، لكن المظاهر كانت بالتأكيد مضللة. فحين تصلبت «إيندايا» وتحركت لتعترض، اشتدت تلك القبضة بتأنيب على خصرها، جاعلة محاولتها للكلام مجرد حشرجة انزعاج مكبوتة. ولدهشتها، سمعت «إيدان» يتابع قائلاً:

- وقد قالت نعم.

- آه يا أحبائي، أنا مسرورة جداً!

بعدما جذبتها والدتها إليها لتحضنها بشكل خانق، جهدت «إيندايا» لاستجماع أفكارها المشتتة ولإعادة تنظيمها بشكل ما. وكسبت ثانيتين رحيمتين على الأقل بهذا الشكل. ووجهها محجوب كلياً بكتف «إيدان» الصلبة التي التصقت بها بشدة.

كيف يستطيع أن يكون بهذا الهدوء، وبرباطة الجأش تلك في كل شيء، حين يتعمد الكذب؟ لكنه بالطبع لم يكن بحاجة لإظهار أيّ عاطفة، لأن الحقيقة هي أنه لا يملك أياً منها أبداً.

والآن هذا... في المرة الأولى التي طلب منها الزواج به، كان ذلك لأنه اعتقد أن هذا ما تريده هي، وأنها بغير ذلك، لن تستمر بعلاقتها معه. لم يكن الحب جزءاً من ذلك كله، وهو لا يعرف ذلك الشعور الآن كذلك. كان ببساطة، يتصرف لإخفاء الحقيقة عن والدتها، غير مدرك أو حتماً غير آبه لما يسببه لها من ألم بهذه الطريقة.

- يجب أن نحتفل!

- ألبس من المبكر جداً الاحتفال؟

بذلت «إيندايا» جهداً لكي تتخطى هذه الكلمات حنجرتها. ولدهشتها، أتى «إيدان» لإنقاذها، فاعترض بلطف قائلاً: «وأنا أرى ذلك أيضاً...» وعندما سمعت «إيندايا» نبرته المرحة الدافئة طرفت بعينيها من الدهشة. أضاف:

- لم يتناول أحد الطعام منذ وقت الغداء. لم لا نكتفي بالشاي الآن، ولنؤجل الاحتفال حتى يعود زوجك إلى البيت؟.

اقتنعت «ماريون» بكلامه وقالت:

- بالطبع، يجب أن يشاركنا في هذا.

اتجهت نحو المطبخ بخطوات رشيقة، وما إن ابتعدت عن مرمى السمع حتى استدارت «إيندايا» نحو الرجل الواقف إلى جانبها، وقالت:

- لقد تخطيت الحد هذه المرة! لن أكون طرفاً في هذا.

سألها «إيدان» بسخرية:

- لا؟ يبدو لي أن الأوان قد فات لمثل هذا الاعتراض. سنحت لك الفرصة للرفض ولم تستغليها.

رددت «إيندايا» بصوت عميق:

- فرصة! لم تكن لدي أي فرصة. وأنت تعرف ذلك. والآن، أنا عالقة في هذه الخدعة المقيتة...

ابتلعت ما تبقى من كلماتها حين أدركت كم تعبر عن الهزيمة. فالتقط «إيدان» علبة الخاتم وراح يلعب بها بإهمال. وأخذ يتفحص الخاتم بداخلها لفترة طويلة، ثم التفت نحو «إيندايا» بملامح غامضة وعينين داكنتين محجوبتين. وقال:

- من الأفضل أن تضعي هذا، على ما أعتقد.

- لا أستطيع.

في السابق، قدم لها «إيدان» هذا الخاتم مع عرض بالزواج، بانت تعلم الآن أنه كان مزيفاً، تماماً كالقصة التي أخبر والدتها بها للتوّ. لن يكون الألم الذي عانته بعد رفضه إياها حينذاك ذا أهمية بالمقارنة مع العذاب الذي سيسببه لها الآن، إن هي تركته يقدمه لها من جديد، وهي مدركة تماماً أن هذه الخطوة ما هي سوى فعل بارد، تم التخطيط له بقسوة بهدف تعزيز غاياته الوحشية.

أشار لها «إيدان» بهدوء جليدي:

- لن تصدق والدتك إعلان خطوبتنا إن لم تفعلي.

ما كان من «إيندايا» إلا أن مزت رأسها بصمت. وبعد برهة، سحب «إيدان» نفساً حاداً كما لو أنه توصل إلى قرار. فقال:

- إن كان ذلك يسهل الأمور لك، فبإمكاننا أن نقوم بذلك بالفعل.

ـ بال . . . ؟

ارتفع رأس «إينديا» بحدة وقد غشي عينيها الظلام من الصدمة وعدم الاستيعاب .

ـ لا يمكن أن تعني . . . .

ـ إن كان يقلقك أن يكون هذا مجرد كذبة ، أستطيع أن أتقدم فعلاً لطلب يدك مرة ثانية ، وتستطيعين . . .

كان عليها إيقافه الآن ، فهي لم تحتمل تركه يتابع . فلو تابع كلامه لسمعت ربما شيئاً قد يحثها على التفكير في الأمر .

لم يكن يعني ما قاله ، عرفت ذلك . ليس بإمكانه أن يعنيه . ليس «إيدان» الذي قطع عهداً على نفسه بألا يتزوج قط من سوى امرأة يحبها حقاً .

ـ لا تكن سخيفاً !

جعل الذعر صوتها مرتفعاً ومتوتراً . وأضافت :

ـ أتستطيع فعلاً التفكير في الزواج حين لا يكون للحب أي وجود لدى الطرفين ؟

عبر صمته المجيب عن السؤال ، عن كل شيء دون الحاجة للتلفّظ بكلمة واحدة . فمات في ذلك الصمت أي أمل سمحت «إينديا» بدخوله إلى قلبها الضعيف اليائس ، الذي تحول إلى غبار حين هز «إيدان» رأسه بعزم . وقال بشكل قاطع مريع :

ـ لا . قلت إني لن أفعل ذلك أبداً ، وليست لدي أي نية في التراجع عن ذلك .

ـ ولا أنا أيضاً ، لذا لا تكلّمني عن الزواج قط مرة أخرى .

ودفعها الألم إلى اعتماد نبرة خاصة مريرة أرادت بها أن تخفي التمزق الذي كانت تشعر به في أعماقها . وتابعت قائلة :

ـ قد تكون أوقعتني في شرك هذا الادعاء ، لكن ذلك سيكون كل شيء ، كذبة مخادعة وقذرة ومقيتة .

ـ حسناً .

رمى «إيدان» الخاتم على الطاولة ، وكانت النظرة التي حدجها بها فارغة ومبهمة . وأضاف :

ـ إن كان هذا ما تشعرين به ، إذن فأنا أوافقك الرأي بشدة .

***

www.elromancia.com مرومانسية

١١ ـ تبحث عن سؤال

ـ إيدان؟

أطلت «إيندیا» برأسها من وراء الباب لتنظر إلى المكتبة. هناك كان المكان الذي يعتزل فيه «إيدان» في هذه الأيام.

وجدته مرة أخرى جالساً إلى المكتب الكبير ولكنه اليوم كان خالياً من كومة الأوراق السميكة المعتادة، كان هناك في المقابل مغلف كبير واحد أبيض اللون يكتب «إيدان» عليه، وتوقفت يداه عند سماع صوتها.

ـ سنغادر الآن إلى المستشفى، لنحضر والدي.

لم يكد يرفع رأسه لينظر إليها، فعضت إيندیا بقوة على شفتها السفلى وفكرت في أن هذا الوجه الشارد الكئيب كان الوجه الوحيد الذي ظهر منذ أربعة أيام حين فاجأتهما والدتها ورأت خاتم الخطوبة.

كان ينضم إلى العائلة فقط أثناء العشاء، حيث كان يأكل القليل ويتكلم بقدر أقل. كما كان يتجنب أي فرصة للبقاء وحيداً معها.

واختفى خاتم الخطوبة، مع كل الأغراض الأخرى التي حاولت إعادتها له. كما أنه لم يقدم لوالدتها أي تفسير للأسباب التي لأجلها لم تكن «إيندیا» تضع الخاتم في إصبعها. وترك الأمر لها لاختلاق العذر بأن حجمه لم يعد يناسب إصبعها جيداً، مما أوجب إجراء بعض التعديلات عليه... كان هذا رد «إيندیا» حين لاحظت أمها الأمر.

وعندما تذكر كيف نظر إليها وهي تتلعثم مختلقة القصة هذه، يتجمد الدم في عروقها. كانت عيناه حينها ناضحتين بالازدراء القاتم، وتعابير وجهه متحفظة

ببرودة. كان بعيداً وخالياً من أي عاطفة كتمثال من الرخام.

ولاحظت الآن أن ملامحه هي نفسها. حتى المشاعر الجياشة التي كانت في يوم ما جزءاً أساسياً وحيوياً من علاقتهما، باتت تبدو الآن كأنها احتضرت، أو غرقت في بحر جليدي من الكراهية.

ـ أنا لا أتوقع أن يستغرق الأمر أكثر من ساعة، أو ما شابه.

ـ حسناً.

كان كلامه مقتضباً. لكن «إيدان» عاد ليستدرك قائلاً:

ـ آه، «إيندیا»...

اقترب من طاولة المكتب أمامه ليلتقط المغلف ويسلمه لها. وقال:

ـ أتعطين هذا لوالدك؟

ـ لوالدي؟

ارتبكت ملامحها، وعبرت إيندیا الغرفة ببطء وأخذت المغلف. فازداد تجهم وجهها حين أحست بسماكته، وقالت:

ـ ما هذا؟

ـ مجرد شيء سيعرف كيف يتصرف به.

ـ لكن لماذا الآن؟

شعرت بانقباض مفاجيء جعل قلبها يعتصر بشكل مؤلم. وأطبقت أصابعها على الورق الأبيض الذي كانت تمسك به. هل كان ذلك ممكناً؟ هل بإمكان «إيدان» أن يكون بهذه القسوة؟

ـ إنه على وشك الخروج من المستشفى! وهو حقاً ليس بحال...

تلاشى صوتها أمام الشرر المتطاير من عينيه والنفور الحانق من الأفكار التي لم تتمكن من التعبير عنها بالكلمات، والتي تمكن من قراءتها بسهولة كما لو كانت كتاباً مفتوحاً أمامه. وقال:

ـ يا إلهي! أيتها الأميرة. هل تظنين حقاً أني قادر على فعل ذلك؟

وبحركة عنيفة، دفع بكرسيه إلى الوراء وانتصب واقفاً على قدميه، ثم استدار مبتعداً عنها واتجه نحو النافذة.

ـ هل تصدقين حقاً أني قد استغل رجلاً مريضاً . . . ؟

لم يكن بحاجة لإكمال جملته . ففي تلك اللحظة ، قبل أن يستدير مبتعداً عنها ، رأت «إيندیا» مشاعره التي ظهرت على وجهه بشكل لم تساورها معه أي شكوك .

ـ لا ، «إيدان» أنا آسفة .

لكنها ، وهي تتلفظ بهذه الكلمات ، خطر لها بقوة أن هذا هو بالتحديد ما أراد أن تعتقده طوال ذلك الوقت . هو الذي جعل الأمر يبدو كأنه قادر على الثأر من والدها ، عن طريق إفلاسه والاستيلاء على منزله العائلي الذي يحبه . لكن ردة فعله الآن بدت كأنها تنكر حقيقة السيناريو الذي بذل جهداً كبيراً لإعداده .

ـ «إيدان» ؟

الآن ، في اللحظة التي كانت فيها غير مستعدة لذلك على الإطلاق ، وغير قادرة على التعاطي معه ، وجدت «إيندیا» نفسها فجأة أسيرة هذا الرجل الواقف أمامها .

والآن فقط ، أدركت الثمن الباهظ الذي دفعته في الأيام الماضية جراء ابتعاده عنها . لقد اشتاقت إلى رؤية وجهه وإلى عناقه ورقته . .

ولأنه منذ أربعة أيام يتجنبها ويبتعد عنها ، باتت تحس الآن بالفراغ التام والضياع الشديد اللذين يعتصران قلبها ألماً .

قالت ثانية : أنا آسفة .

ثم أجفلت إلى الوراء حين ارتد على نفسه ، وزمجر غاضباً .

ـ بالله عليك «إيندیا» . اخرجي من هنا . خذي تلك الرسالة وأعطها لوالدك واتركيني بسلام !

تجمد لسانها في فمها ، فباتت عاجزة عن التلفظ بأي جواب ، لكن لم يكن هناك في الواقع أي شيء تقوله .

وضعت الرسالة في جيب السترة الكتانية الحمراء ، وارتدت متجهة نحو الباب . . . بدا الوقت الذي استغرقها للوصول إلى الباب أزلياً . كانت كل ثانية منه مثقلة بشعورها العميق القويّ بعينيه اللتين تحدقان إليها .

كانت يدها على الباب حين تكلم «إيدان» فجأة من جديد : «إيندیا» .

كان صوته مختلفاً كل الاختلاف . وبدا تلفظه لاسمها بالغ الرقة بشكل غريب ، يكاد معه يكون لطيفاً ، وهذا ما جعلها تستدير بسرعة . وكشفت استجابتها الفورية مدى حساسيتها المرهفة تجاهه .

كان في صوته وفي عتمة عينيه شيء ما أثار أعصابها . لربما كان وهج أشعة الشمس خلفه هو السبب . لكن ملامحه بدت فجأة شاردة ومتوترة .

ـ نعم ؟

لكن تبدلاً جذرياً في وجه «إيدان» عاد ليظهر من جديد وهي تتكلم . فتلاشى كل أثر للتوتر وانبسطت ملامحه كما لو أنها صورة تم رسمها بحذر وروية . وقال :

ـ اعتني بنفسك .

ألقى بكلماته إليها ، ورماها بلا مبالاة آلمتها . لا بد أنها تخيلت الرقة في صوته منذ لحظة مضت . فلا يعقل أن «إيدان» ذاك ، الرجل الحساس ، كان حقيقياً .

ـ سأعود قبل أن يتسنى لك الوقت الكافي لتشتاق إليّ .

طمأنته بمرح بعد أن رسمت على وجهها ابتسامة أخفت بها الألم الذي اعتصر فؤادها المحطم .

أجابها «إيدان» بشكل مبهم :

ـ هذا مستحيل . وداعاً أيتها الأميرة .

لقد تم صرفها . لكن نوعاً من الشك المتردد ومن الشعور بالانزعاج جعلاها تقف في تردد وحيرة .

نظر إليها «إيدان» بحدة حين بقيت دون حراك ، وعلا وجهه عبوس واستياء جعلاه يقطب حاجبيه . وقال : قلت وداعاً «إيندیا» .

كانت نبرته مهددة بالعقاب إن لم تطعه . وتابع قائلاً :

ـ ولا تنسي أن تعطي هذه الرسالة لوالدك .

لم يكن لديها خيار آخر سوى المغادرة ، فأسرعت إلى السيارة حيث كانت والدتها وشقيقها في انتظارها .

حدثت نفسها بعزم أنها كانت تتخيل الأشياء . «إيدان» حساس ؟ مستحيل ! لا شيء يستطيع اختراق ذاك الدرع من الثقة بالنفس الذي كانّ يرتديه بسهولة .

لماذا إذن هي عاجزة عن طرد صورة وجهه من ذهنها؟ لماذا يسكن أفكارها بنوع من التأنيب واللوم اللذين يثيران أعصابها ويؤرقانها ويجعلانها عاجزة عن التركيز؟

لم تتذكر إلا حين كانوا يهمون بمغادرة جناح المستشفى، فقالت:

- آه، أبي. كدت أنسى.. هذا لك.

شعرت بالرعشة الأولى تنسل إلى ظهرها وهي تراقب والدها يفتح المغلف، ثم تلتها رجفة خوف أشد قوة وهو يحدق بالكلمات المكتوبة، وقد علت وجهه نظرة دهشة وتساؤل.

- أنا... لا أفهم.

خرجت الكلمات منه بصعوبة. وأضاف:

- لماذا يقوم «إيدان وولف»...؟

قطع كلامه وهو يهز رأسه بارتباك وحيرة. فتدخلت «ماربون» بسرعة قائلة له:

- كان «إيدان» يقيم معنا.

لقد اتفقوا على إطلاعه اليوم، لكنهم قرروا الانتظار حتى يصلوا إلى المنزل. وأضافت: «لقد تصالحا هو وإيندیا».

- ألهذا السبب...؟

فسألته إيندیا بإلحاح بعد أن ارتفعت عينا والدها إلى وجهها: «ما الأمر يا أبي؟ ما الذي فعله «إيدان»؟».

- المنزل... كل شيء. لقد قام بالتنازل عن كل ما أدين له به.

- قام بـ....

لم تصدق إيندیا أنها سمعته جيداً. وتجاهلت أسئلة والدتها المرتبكة، فتناولت الرسالة وراحت عيناها تطيران فوق الأسطر.

التنازل عن كل الديون... المنزل الريفي تعود ملكيته لآل مارشنت... كل التحسينات وعمليات الترميم هدية لهم من «إيدان».

- «إيدان»....

كيف يعقل أن يكون بهذا الكرم؟ لماذا يعطيهم هذا القدر في حين أنه يملك السيطرة عليهم؟ لكن، فجأة، سمعت صوت «إيدان» في ذهنها حين تكلم عن بركة السباحة، قائلاً: اعتقدت أنها ستكون مثالية لوالدك. ثم سمعت صوتها مرة أخرى: هل تفعل شيئاً مماثلاً من أجله؟. وجواب «إيدان» الحاسم.

عجزت عن التفكير وعن تحليل ما يعنيه كل ذلك. لم تعلم سوى أن الشيء الوحيد في فكرها كان صورة تلك اللحظات الأخيرة مع «إيدان» في المكتبة قبل أن تغادر إلى المستشفى. ورأت من جديد تلك النظرة المربكة الغامضة على وجهه، وسمعت التشديد على تلك الكلمة الأخيرة «وداعاً».

كانت والدتها تراقبها عن كثب ورأت التبدل الذي طرأ على وجهها. فقالت بتفهم غريزي:

- «إيندیا»، إن كان عليك القيام بأمر ما فلا تقلقي علينا.. ستقلنا سيارة الإسعاف إلى البيت.

رمقتها «إيندیا» بنظرة امتنان كبير.

- عليَّ أن أذهب! أبي، أنا آسفة... لكن الأمر هام. قد يكون أهم شيء في حياتي.

كانت تتحرك وهي تتكلم، ففتحت الباب على وسعه بعجلة، ولم تكد تسمع الكلمات التي وجهها إليها والدها.

قادت سيارتها مثل سائقي سباق السيارات عائدة إلى ويستبوري. وكانت تدعو الله طوال الوقت أن تكون مخطئة، وألا يدل تصرف «إيدان» على ما فكرت فيه. لكنها، حين بلغت الطريق الفرعية في ضواحي القرية، اضطرت لتخفيف سرعتها إلى درجة كبيرة وراء عربة نقل ضخمة كانت تسير ببطء. فدمدمت بغضب: «آه، هيا. هيا!» وكانت أصابعها تضرب بشكل متواصل على المقود. ثم هدأت حركاتها المهتاجة وتجمدت فجأة حين رأت سيارة مألوفة جداً تمر على الممر الداخلي للطريق الفرعية.

- «إيدان»!

إنها قادرة على التعرف إلى خطوط سيارته الملساء الداكنة في أي مكان...

www.elromancia.com

وهذا الممر يؤدي إلى المنعطف باتجاه الطريق السريعة!

إذن فقد أصابت في تخمينها. كان «إيدان» عائداً إلى لندن، دون أن يقدم أي تفسير، ماذا ستفعل الآن إذاً؟

لن تدعه يذهب دون مواجهة. كان هذا أمراً أكيداً! لم تعرف ما الذي كان يدور في فكره حين كتب تلك الرسالة إلى والدها، والطريقة الوحيدة لاكتشاف ذلك هي مصارحته وجهاً لوجه.

ما إن استقرّت الفكرة في ذهنها حتى حولتها «إيندیا» إلى فعل، فالتفت بسيارتها إلى الممر نفسه الذي عبر عليه «إيدان» وضغطت بقدمها على دواسة الوقود. ربما تستطيع اللحاق به وحمله على التوقف قبل أن يبلغ الطريق السريعة. كان هناك شيء واحد أكيد... ستنهي معه هذه المسألة حتى لو اضطرت للحاق به إلى لندن.

ظهرت أخيراً سيارة الجاغوار أمامها. ويبدو أن «إيدان» لم يلحظ وجودها على إثره. أو، إن كان قد لاحظ ذلك، فإنه لم يتصرف حسبما هو متوقع، كأن يزيد من سرعته مثلاً بغية الهرب منها. بل كان في المقابل، ولدهشتها، يخفف سرعته.

ـ ماذا الآن؟

قطبت إيندیا وجهها بارتباك وحيرة، وعدلت سرعتها لتبقى خلف السيارة الرمادية.

أتراه لم يكن متجهاً نحو الطريق السريعة في الواقع؟ هل بالغت في ردة فعلها ببساطة، فاختلقت المخاوف التي لم يكن لها وجود بالفعل؟

لا، هي لم تكن مخطئة، فبإمكانها حتى من هذه المسافة رؤية طرف حقيبة السفر على المقعد الخلفي من السيارة أمامها. لم تكن تتخيل ذلك.

كان يستدير الآن. إلى أين إذن...؟ ثم تجلى لها الجواب حين توقفت السيارة الرمادية خارج مبنى مألوف إلى حد مؤلم. أوقف «إيدان» سيارته خارج الكنيسة المحلية، المكان الذي كان يفترض به و «إيندیا» أن يتزوجا فيه السنة الماضية.

ترقرقت الدموع فجأة في عيني «إيندیا»، وراح قلبها يخفق بشكل صاخب متقطع جعل يديها تتعلقان بالمقود بقوة، بانتظار مرور لحظة الانفعال. أيعقل أن

هذا يحدث فعلاً؟ وأكثر من ذلك، هل ذلك يعني ما فكرت فيه... ما أملت فيه أكثر من أي شيء في العالم... أيعقل؟

راقبت «إيدان» وهو يترجل من السيارة. وانتظرت حتى شق طريقه إلى أعلى الممر الخارجي ثم تسللت بسيارتها وأوقفتها خلف سيارته، لم يكن قد رآها ولم يدرك وجودها حتى... لكنها مع ذلك، وجدت نفسها تلحق به مسرعة خشية أن يهرب منها.

بعد أشعة شمس المساء، بدت الكنيسة من الداخل باردة ومظلمة، فبذلت جهداً لتركز نظرها بوضوح كاف يمكنها من معرفة مكان «إيدان»، ورأته أخيراً عند نهاية الممر الداخلي.

كان يقف بصمت بقامته الطويلة الداكنة وبنطاله وقميصه الأسودين اللذين ارتداهما هذا الصباح. وكانت يداه غارقتين في جيبيه وهو يحدق إلى المذبح حيث وقفا معاً منذ اثني عشر شهراً مستعدين لقطع الوعود.

بما أنه كان يدير لها ظهره، لم تستطع «إيندیا» معرفة ما تعكسه تعابير وجهه، لكن شيئاً ما في وضعية كتفيه وانحناءة رأسه الداكن الخفيفة، كان معبّراً بشدة. وهذا ما جعلها تتقدم نحوه بخطوتين سريعتين.

ـ «إيدان»؟

لم يكن صوتها سوى نحيب خفيف لم يكد يكون مسموعاً. لكنه سمعه واستدار على نفسه على الفور. للحظة فقط، لمحت على ملامحه المنحوتة تعابير الدهشة والمفاجأة، وشيء آخر، طبيعي وعفوي. لكنه، مباشرة، عاد وجهه لينغلق من جديد، مستخدماً مرة أخرى ذاك الدرع لكي يمحي به ما ظهر من تعابيره.

لكن هذه التقنية لم تكن ناجحة جداً هذه المرة. لسبب أول، هو أنها كانت متنبهة لكشف إشارات التحكم بالنفس التي لم تكن منسجمة تماماً مع اللامبالاة التي كان يحاول إظهارها. ولسبب آخر هو أنها كانت قادرة على رؤية التوتر على زاويتي فمه وعينيه المكفهرتين. فسألها بقسوة:

ـ ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟

لم يكن في صوته ما يدل على ترحيبه بها. لكن «إيندیا» استجمعت كل تصميمها لئلا يتملكها الخوف. فابتلعت ريقها بصعوبة، وأخذت نفساً عميقاً مهدئاً.

ـ لحقت بك من الممر الفرعي. كان عليَّ أن أتكلم معك.

ـ ليس لدينا ما نقوله.

ـ آه، بلى. لدينا ما نقوله. أو، على الأقل، إن لم يكن لديك ما تقوله لي، فلدي أنا الكثير من الأسئلة التي أطرحها عليك. مثلاً، أين كنت ذاهباً، «إيدان»؟ هل كنت في طريقك إلى لندن؟

كررت الأسئلة التي كانت تتأجج في رأسها واحداً تلو الآخر.

ـ هل كنت مغادراً «إيدان»؟ هل هذا صحيح؟

لم يجبها، بل ظل ملتزماً الصمت بعناد. وكانت ملامحه مرسومة بتلك الخطوط القاسية الصلبة. لكنه لم يتمكن من إخفاء بريق خاطف عكس بعض المشاعر المرتبكة في عينيه. فكان ذلك ما أعطى «إيندیا» جوابها.

ـ هذا صحيح، أليس كذلك؟ لكن لماذا؟

ـ فكرت في أن ذلك هو الأفضل.

ـ الأفضل؟

رددت «إيندیا» كلامه الجاف وهي لا تصدق ما تسمع. وأضافت:

ـ الأفضل لمن «إيدان»؟ لك أم لي؟

ـ لكلينا. يجب ألا نكون معاً قط. كان يجب أن أدرك منذ البدء أن أحدنا لا يناسب الآخر... وأننا سنمزق أنفسنا أشلاء.

عكست كلماته نوعاً من القناعة الصلبة بحيث أن سماعها جعل الدم يتجمد في عروق «إيندیا». وتلاشى من ذهنها كل أثر للأمل والثقة، ليخلف مكانه مجرد ألم كئيب فارغ.

ـ لم يكن عليك اللحاق بي، «إيندیا». لا أريدك هنا. أريد منك أن تظلي بعيدة جداً عني. اخرجي من حياتي... هل هذا مفهوم؟

يا لقدرته على إيضاح ما يريد.. لقد أخطأت في فهم كل شيء. لم يشعر قط

نحوها بأي شيء من البدء. وإن كان ذلك ممكناً، فهو الآن يشعر بأقل من ذلك.

قالت بضعف: آه، نعم! أفهم تماماً.

ـ جيد. الآن بعدما انتهينا من توضيح ذلك، أعلمك بأنني ذاهب وبأنني لا أريد أن تلحقي بي.

إن لم تتلق الرسالة بوضوح تام، فإن الطريقة المتشامخة التي مشى بها، وجسده الذي يبتعد، كانا كفيلين بإيضاح كل شيء بشكل أليم. كان كما لو أنه يشعر بأن أي احتكاك بسيط بينهما سيصيبه بالعدوى... وكان ذلك كافياً جداً حتى لإقناع قلبها الغبي.

لم يكن «إيدان» يريدها، لم يردها قط. كانت تخادع نفسها فحسب طوال الوقت. واندفاعها المسعور لإيجاده، والرحلة البائسة من المستشفى، لم يكونا في النهاية إلا كمطاردة وزّة برية.

***

كانت كلمات «إيدان» واضحة كل الوضوح، والنبرة القاسية التي استخدمها تركت «إيندیا» يائسة..

لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر إليه. وفي تلك اللحظة، تغير شيء ما كانت كما لو أنها انزلقت في انعطاف من الزمن بات معه الحاضر ماضياً. كاد اليوم أن يكون يوم زفافها من جديد وهي واقفة تراقب الرجل الذي أحبته يتخلى عنها، وهذا جعلها تواجه ذاك الكرب مرة ثانية.

لا يمكنها السماح بحصول ذلك! لكن ما عساها تفعل لإيقافه؟ وسمعت مرة أخرى صوت «إيدان» في ذهنها، «إن تطرحي الأسئلة الصائبة، أجبك». لكن ما هي الأسئلة الصائبة؟ ما عساها تفعل أمام رفضه العنيد لها؟ وهل من فائدة من القيام بأي شيء؟

لكن، ألم تكن قد نسيت ما هو واضح؟ ماذا عن السبب لتواجدها هنا في الأصل؟

ـ «إيدان»! انتظر!

بلغه صوتها وهو يضع يده على الباب. فتوقف على الفور، لكنه لم يلتفت. بل

وقف منتظراً، وقد أبقى رأسه ملتفتاً عنها بعناد.

ـ لدي بعض الأسئلة أطرحها عليك. وبعد أن تجيب عنها لن أحاول منعك من الرحيل، لكني بحاجة إلى الصدق التام منك. إن تقل لي الحقيقة، فسأقابلك بالمثل.

لكنها حذرت نفسها من أن ذلك الصدق قد يكلفها أكثر بكثير مما هي مستعدة له. كانت تقوم بمخاطرة رهيبة.

الإحساس بالخوف من شرٍّ مرتقب، والذي انقبضت منه كل أعصابها، لم تخفف من حدته التنهيدة الساخطة التي أطلقها «إيدان» قبل أن يستدير نحوها أخيراً ببطء وبنفور. فقال غاضباً: «هاتِ ما عندكِ».

سحبت إيندیا نفساً عميقاً مرتجفاً، لقد حانت فرصتها وعليها أن تستغلها، وقالت:

ـ أعطيت رسالتك لوالدي.

حملقت عيناها الزمرديتان باحثة في وجهه الساكن عن أي قدر ضئيل من الانفعال، لكن دون جدوى.

ـ لمَ فعلتَ ذلك «إيدان»؟ ما الذي جعلك تتنازل عن كل ديونه بهذا الشكل؟

ـ أستطيع تحمل الخسارة.

كان جوابه جاهزاً، ترافقه هزة كتفيه اللامبالية. فانفجرت ساخطة:

ـ قلت إني أريد الصدق، «إيدان»! لن نصل إلى أي مكان إن لم تتصرف بشكل سوي.

ـ وهل لنا أي مكان نصل إليه؟

كادت السخرية الباردة التي عكسها رده السريع تثير أعصابها. فتنهدت بضجر قائلة:

ـ لست أدري. كل ما أعرفه أن ما من فرصة لدينا قطّ إن لم نحاول حتى. لقد قلت إن أحدنا لم يعرف الآخر حق المعرفة من قبل....

ناشدته بيأس للمرة الأخيرة، وعيناها الزمرديتان تلتمسان منه الاستماع إليها. وأضافت:

ـ ألا يجعلك ذلك ترغب في المحاولة بجهد أكبر هذه المرة؟

ـ ليس بالضرورة.

كانت وقفته وملامحه من القسوة والصلابة ما يشبه النقوش الحجرية.

ـ قلت لكِ إني لا أراهن على الفرس الخاسرة.

ـ أوليس لهذا أي فرصة على الإطلاق؟

ـ بالطبع لا! كان ذلك واضحاً منذ البدء. كلُّ ما في الأمر أني كنت أعمى البصيرة فلم أر ذلك. كنت غبياً إلى درجة كبيرة مؤخراً. غبياً في محاولتي لإحياء علاقتنا، في حين أنه لم يكن هناك شيء لإعادته إلى الحياة. كنت مخطئاً حتى في عودتي إلى ويستبوري. كان عليَّ أن أعرف أن البحث عنك...

بدرت منها حركة طفيفة، استجابة لم تستطع التحكم بها، جعلته يتوقف فجأة. مرّت ثانية قبل أن يدرك ما قاله، فحجب جفناه المتثاقلان عينيه مخفياً عنها كل أثر للمشاعر. فالتقطت لمحة خاطفة عكست شيئاً آخر، شيئاً مختلفاً جداً وفاضحاً جداً. كان ذلك بصيصاً من انفعال أخبرها أنها تمكنت أخيراً من العثور على شق في ذاك الدرع المنيع في ظاهره. فقالت بحذر وهي تجهد للحفاظ على الهدوء في صوتها:

ـ البحث عني؟ لكنك قلت إنك جئت لرؤية والدي، وإنك أردت استيفاء ديونه، لا شيء أكثر.

لكن «إيدان» كان قوياً جداً وعازماً بتصميم على عدم كشف الكثير.

شعرت «إيندیا» كما لو أنها تتلمس طريقها عبر ضباب كثيف متماسك.

دعت الله أن تبدو أكثر ثقة بنفسها مما كانت عليه في الحقيقة. وتابعت قائلة:

ـ إنَّ الرجال أمثالك لا يأتون بأنفسهم لجمع أموالهم. فلديك موظفون يقومون بذلك عنك. كان بإمكانك البقاء بأناقة في لندن، وتسليم ذلك كله إلى أحد مرؤوسيك الكفوءين...

ـ أردت المنزل الريفي.

أخبرتها نبرة جديدة في صوته أن «إيدان»، إن لم يكن قد بدأ بالتقهقر، فإنه بالتأكيد أصبح في حال اختل فيها ميزان الأمور، لصالحها.

ـ آه، نعم. أردت المنزل إلى حد أنك أنفقت ثروة على كل تلك التحسينات. وعزمت على ترميمه بشكل جميل يعيده إلى سابق مجده. . . فقمت بتجديده دون أن تنتظر في الواقع أي شكر أو عرفان. . . ومن ثم أعدت تسليمه لوالدي دون تردد.

قد لا يكون ظهر «إيدان» متكئاً جسدياً على الباب الخشبي الثقيل خلفه، لكنه فكرياً على الأقل كان محاصراً. وقد عرف كلاهما ذلك. فعادت إليها ثقتها فجأة، وحرصت على استغلال فرصتها.

ـ إذن، قل لي، «إيدان». هل هذا تصرف رجل أعمال غليظ القلب، يتمتع بتلك السمعة التي حرصت على اكتسابها خلال سنوات وسنوات؟ هل هذا من الأشياء التي قد يقوم بها الـ «لون وولف»؟.

ارتفع رأس «إيدان» أخيراً، وكانت عيناه الأبنوسيتان تقدحان الشرر.

ـ تعلمين أني كرهت دائماً هذا اللقب اللعين!

ـ لماذا؟ ألأنه ليس أنت؟

ـ قد أبدو أنا من الخارج، أما في الداخل. . .

رددت «إيندیا» الكلمة الأخيرة لتحثه على مواصلة كلامه، وذلك حين توقف متردداً: الداخل؟

فانفجر «إيدان» قائلاً:

ـ في الداخل أحمق لعين متيّم بحب امرأة لا تبادله الحب! هذا بالتأكيد ليس من الأشياء التي يفترض بـ «لون وولف» القيام بها!

ثم نظر إلى وجه إيندیا في جو من الصمت المشدود الذي تبع كلامه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ملتوية ساخرة، وهز كتفيه ببرود قائلاً:

ـ حسناً. لقد قلت إنك تريدين الصدق.

ـ أنا. . .

عجزت «إيندیا» عن التفكير في كلمة تقولها. كانت منهمكة في محاولة استيعاب الوقع الذي أحدثته كلماته. هل قال متيم بالحب؟

ـ حسناً. بما أني وصلت إلى هذا الحد، فقد أروي لك كذلك القصة كاملة.

كان الاستفزاز في نبرة «إيدان» غير منسجم مع النظرة التي سكنت عينيه.

ـ وقعت في حبك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها، حين اقتربت مني في تلك السهرة.

ـ لكن. . . الذي قلته. . . الرهان. . .

ـ لم أدرك أنك كنت المرأة التي سمعتها تصيح عالياً. . . ليس في البدء. أدركت ذلك مع الوقت، لكني كنت قد أغرمت بك. حاولت أن أُقنع نفسي بأني سأعلمك درساً ليس إلا. وبأني سأتلاعب بك لفترة طويلة، ومن ثم أتركك لتسقطي بقوة من ارتفاع شاهق. لكني عرفت في قرارة نفسي أني كنت أخادع نفسي ليس إلا، وأني لن أستطيع قط فعل ذلك. وحين قلت إنك تريدين الزواج، تمسكت بقوة بتلك الفرصة.

ـ لكي تعود وتقذفها في وجهي في يوم زفافنا.

امتدت يد واحدة طويلة ومرت عبر شعره الداكن في حركة عكست الارتباك الذي نجح في حجبه عن نبرة صوته.

ـ «إيندیا»، لقد قلت لك. . . كنت عازماً على الزواج بكِ. أردت الزواج بك، لكني لم أكن أعرف مشاعرك نحوي.

ـ لم أعبر عنها قط، أليس كذلك؟

لقد كانت حينذاك خائفة جداً وغير واثقة به. وأضافت:

ـ لكني قلت نعم للزواج.

ـ آه، نعم. وكنت أعرف السبب. أردتني لأنني ثري. . . وأنا رضيت بذلك. لكني في ذلك اليوم في الكنيسة، وحين نظرت إليك، عدت إلى رشدي حقاً، وعرفت ما الذي كنت أحاول القيام به.

وحين تردد، قاطعته «إيندیا» بقلق:

ـ وما كان ذلك؟

ـ كنت أحاول تقييدك، وسجنك في زواج لم يكن يرتكز حقاً على الحب. أردتك في حياتي، وأردت التمسك بك بأي طريقة، ورفضت أن أدعك تبتعدين عني. لكني لم أكن أفكر بشكل سوي. لم أر الطريقة التي سينتهي بها زواجنا في المستقبل، إلا حين أدركت أن ذلك ما حصل تحديداً لوالدي. عرفت حينها أن علي

فك أسرك.

- لقد فعلت أكثر من ذلك

بالرغم من كل الذي فعله لإخفاء الأمر، فإن بعضاً من آثار الألم الذي أحست به حينها كان يتردد بين الكلمات.

- أعرف ذلك.

كان صوته بالغ الرقة. وأضاف:

- لكني لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك. كان عليّ التأكد من إبقائك بعيدة عني. فلو لحقت بي، لما قدرت على تحمل ذلك. ولو رأيتك ثانية، لما تمكنت من مقاومتك لذا، كان علي إنهاء الأمر كلياً. لم أستطع أن أوقعك في شرك زواج كذاك الذي جمع والدي، ولم أستطع مواجهة احتمال أن تكرهيني في النهاية، كما كرهت والدتي والدي.

«لو أردت فعلاً أن أؤذيك، لتزوجتك وهذا أفظع ما كان يمكن أن يحصل».

ترددت كلمات «إيدان» التي قالها منذ بضعة أيام في رأس «إينديا»، فكان لها وقع جديد أشد قوة.

- لذا، كان عليّ أن أفك أسرك.

أفك أسرك! لم تنظر قط إلى تصرفاته من هذه الزاوية. لكنها الآن وقد فعلت ذلك، بدت لها تصرفاته تلك غاية في الصدق ومثالاً رائعاً للكرم وللحب.

وكان مستعداً لتكرار ذلك من جديد هذه المرة. كان في الواقع سيرحل مبتعداً، ويتركها ووالدها... حزين طليقين كما لم يكونا من قبل، وقد سددت كل ديونهم وتم ترميم المنزل بشكل رائع. فقالت بهدوء:

- «إيدان»، لقد نسيت أمراً واحداً بالغ الأهمية.

- ما هو؟

قطب حاجبيه في حيرة واكفهرت عيناه. فأجابته «إينديا»:

- والداك، لم يحب أحدهما الآخر قط.. ليس كما يجب. إنهما حتى لم يعرفا ما هو الحب.. ليس كما نعرفه نحن.

أصبح «إيدان» ساكناً، شاحب الوجه، وسألها بصوت أجش: «نحن؟».

- هذا صحيح.

اقتربت منه «إينديا» بخطوتين متعثرتين، مادة له يدها. وقالت:

- ألا تعرف؟ أنا أحبك أيضاً.

لو ظل متراجعاً إلى الوراء أكثر من ذلك بعد لانهارت رباطة جأشها. لكن «إيدان» قطع بعد لحظة المسافة التي تفصلهما بسرعة، وأخذها بين ذراعيه وسحقها على صدره.

كان عناقه كل ما حلمت به في حياتها، ففيه كل الشوق والألم اللذين ألما بهما في السنة الماضية. لكنه أيضاً حمل الأمل الجديد والهوى الذي يتبادلانه. وأهم من ذلك كله، احتضن عناقه الحب الذي عرفت الآن أنه يشعر به.

مرّ وقت طويل، طويل جداً قبل أن يرفع رأسه، ممسكاً بها بقوة. واتجه بها بلطف إلى أحد المقاعد الخشبية وأجلسها إلى جانبه، ثم قال:

- هل هذا حقيقي؟

كان صوته المنخفض مرتجفاً. وأضاف: «أصحيح حقاً أنكِ تحبينني؟ لم أتصورك تقولين هذا».

- لقد سمعتني جيداً. أنا أحبك «إيدان» من كل قلبي. وأرجو منك أن تصدقني في أن مالك لا يعني لي شيئاً. سأحبك لو كنت فقيراً.. لو كنت لا تملك شيئاً. فأنت هو كل ما يهمّني.

- بالرغم من كل ما..

بدأ «إيدان» كلامه، لكن «إينديا» أسكتته بلمسة رقيقة من أصابعها على فمه. وقالت له برقة:

- الزلزال وكل شيء، أتذكر؟

ثم أخذت منه عناقاً آخر طويلاً ملتهباً.

- كنت أعمى البصر كلياً.

وهزّ «إيدان» رأسه الداكن حين فكر بحماقته، وأضاف:

- لا أعرف لماذا لم أرَ ذلك.

- ربما يكون السبب هو الوضع الذي كان عليه والداك. لم تكن تعلم ما الذي

تبحث عنه. وبالطبع، أنا لم أساعدك في ذلك بسبب ذلك الرهان السخيف.

- توصلت إلى بعض الافتراضات المشوهة نتيجة لهذا. حكمت عليك مستنداً إلى دليل ناقص. لهذا السبب، صدقت والدك حين قال إنك تريدين اتفاقاً سابقاً للزواج.

- كان عليك أن تكلمني في هذا.

لم يكن في كلماتها أي تأنيب، بل قليل من الحزن فحسب.

- أعرف.. صدقيني، أنا أعرف. لكن الحقيقة هي أني لم أجرؤ على ذلك. كنت خائفاً إن فعلت ذلك، من أن تفصحي لي بأنك لا تحبينني، وبأنك أردت مالي فقط. وقد بدا هذا حينها يتلاءم مع طبعك... الطبع الذي اعتقدته طبعك. كنت مستعداً لفعل أي شيء على الإطلاق لإبقائك في حياتي.

- إذن، لماذا وضعت تلك الشروط على الاتفاق؟ لماذا قمت بتجميده لمدة سنة؟

- لأني كنت لا أزال عازماً على الزواج بك. كنت أريدك، مهما يكن الاتفاق الذي أردته، أو كما تبين أن والدك أراد أن يعقده. كان لدي أمل عقيم في أن تعتبري أنك ستصبحين قريباً ثرية بحيث لا تحتاجين إلى زوج ثري، وأكون بذلك قد أزلت عامل المال من المعادلة. أملت في أن أستغل تلك السنة لأعرفك عن كثب بالفعل، وأجعلك تقعين في حبي إن حالفني الحظ. حتى إذا ما تحقق ذلك، تبقين معي.

- وهذه المرّة؟

بدا أخيراً أن «إيندیا» كانت تجد الأسئلة الصائبة لطرحها، وكانت الأجوبة تقدم لها كل ما كانت تأمل به. بل وأكثر من ذلك. أضافت:

- لماذا عدتَ؟

التفتت تانك العينان الداكنتان نحوها في نظرة أعطتها الجواب الذي تريده دون الحاجة إلى أي كلمة تقال. لكن «إيدان» تابع بالرغم من ذلك، وقال:

- جئت بحثاً عنك. حاولت البقاء بعيداً، لكني لم أستطع. لم أستطع العيش دونك. وفكرت أنك الآن حصلت على المال، وأننا نستطيع البدء من جديد في علاقة متوازنة. لكنك رفضت أن تكون لك أي صلة بي... ومن يستطيع إلقاء

اللوم عليك؟ لم أعرف كيف أصل إليك. لذا، حين استحق تسديد ديون والدك، تعلقت بالفرصة التي قدمها لي ذلك.

- لم تكن قط ستطالب والدي بتسديد ديونه.

كان ذلك تصريحاً وليس سؤالاً. لكن النتيجة كانت واحدة حين رأت «إيدان» يحرك رأسه في نفي شديد. وقال:

- حدثت نفسي بأن استخدم هذه الديون لأمسك به تحت سيطرتي... لكن الحقيقة كانت أنها أعطتني بالفعل عذراً لكي أعود، لأراك. أردت رؤية والدك لأحاول تسوية الأمور بيننا. لكني حين اكتشفت أنني أصبحت قانونياً مالك المنزل، بدا لي أن القدر كان يلعب لصالحي. كانت تلك الطريقة الوحيدة الممكنة لأبقى في حياتك مدة كافية لتسوية الأمور.

مرت يده القوية عبر شعره الأملس البراق في حركة عبّرت ببلاغة عن المشاعر التي كانت تغمره.

- ومن ثم، حين أدركت كم كنت حقاً صادقة وصريحة... «إيندیا» حبيبتي، أنا آسف جداً...

- لا تكن آسفاً.

وأضافت:

- تصرف والدي بشكل سيء جداً، مستغلاً إياك بهذه الطريقة، ومتدخلاً في حياتنا. أتظن أن بإمكانك أن تغفر له يوماً؟

- إن كنت تحبينني، أستطيع فعل أي شيء. إنه عائلتك، وأنت تحبينه. لذا، فإني لأجلك سأضع الماضي خلفنا. أنا أتساءل فقط إن كان هو...

قاطعته «إيندیا» بسرعة:

- لا داعي لأن تقلق.

فقد استعادت في ذهنها فجأة ذكرى ردة فعل والدها. وأضافت:

- حين أتيت بحثاً عنك، كنت متأكدة أن والدي حزر إلى أين أنا ذاهبة، ووافق على ذلك. أنا واثقة من بأنه مستعد لإبلاغك أنه ارتكب بعض الأخطاء المروعة، وأنه سيكون ممتناً لك لإعطائه فرصة ثانية لإصلاح الأمور.

- سألاقيه إذن في منتصف الطريق.

- «إيدان...» لم تستطع التعبير عن أفكارها بالكلمات. لكن وجهها المشع وبريق عينيها الزمردي أخبرا قصتها، مما جعله يبتسم برقة.

- أنا مستعد لفعل أي شيء لأجلك يا حبي الجميل. أريد قضاء ما تبقى من حياتي في إسعادك. بالمناسبة... تعالي معي.

- أين...؟

صرخت «إيندیا» حين أخذ يدها وشدها برفق لتقف على قدميها وأسكتها قائلاً:

- انتظري لحظة. سترين.

جرّها خارج صف المقاعد وأنزلها ببطء عبر الممرّ باتجاه المذبح. توقف عند أسفل الدرجات حيث وقفا معاً منذ ستة خلت واستدار نحوها. وشد على يدها بينما كانت عيناه عميقتين داكنتين، وقال:

- «إيندیا»، حبيبتي. يبدو أن هذا هو المكان الأنسب لأسألك هذا. أتقبلين الزواج بي كما ينبغي هذه المرة؟ أتعطينني الفرصة لأريك حقاً مدى عمق حبي لك وصدقه؟ أتسمحين لي بقضاء ما تبقى من حياتي وأنا أعوض عما فاتنا في السنة الضائعة، وأجعل كل سنة قادمة نقضيها معاً أجمل وأسعد سنة مرت بك؟

تنهدت «إيندیا» بسعادة: أيجب أن تسأل؟

- ربما لا، لكني بالتأكيد بحاجة إلى جواب. فقد عاهدت نفسي ألا أتزوج قط حتى أتأكد من أني أحب وأني محبوب في المقابل. ليست لديّ أي شكوك الآن. مستقبلي الوحيد هو معك. من دونك، أنا لا شيء. لذا، أرجوك أن تقولي...

قاطعته «إيندیا» قائلة:

- نعم! بالتأكيد أن الجواب هو نعم. لا يمكن أن يكون غير ذلك.

وخطرت لها فجأة فكرة ما، فاتسعت عيناها والتفت زاويتا فمها لترسم على شفتيها ابتسامة بهجة وسرور.

- ما الأمر؟

التقط «إيدان» التبدل الذي طرأ على مزاجها.

- تذكرت كيف أنك التقطت باقة الورد. قلت إن ذلك يعني عادة أنك ستكون من يتزوج تالياً... وكنت على حق. من بين كل الضيوف في ذلك اليوم، ستكون الرجل التالي الذي يقف في نهاية الممر.

- إن كنت صادقاً، هذا هو بالتحديد ما صليت لأجله حتى في ذلك الوقت.

خبت ابتسامته، وحدقت عيناه بعمق إلى عينيها حيث اشتعل حبه بشكل واضح لها، فقال بصوت أبح:

- آه، يا إلهي! «إيندیا». تعالي إلى هنا وعانقيني.

فارتمت تلقائياً بين ذراعيه.

مرة جديدة، شعرت بانسحاقها تحت وطأة قوته، فقد أمسك بها بشدة لم تترك لها أي أمل بالنجاة، ولكنها لم ترد النجاة. فهنا هو المكان الذي تنتمي إليه، والذي ستقضي فيه ما تبقى من مستقبلها.

دمدم «إيدان»:

- آه، يا إلهي «إيندیا»! إن ما تجعليني أشعر به لا يتلاءم قط مع مكان وجودنا، فأفكاري لا تتناسب أبداً مع الكنيسة.

حدقت «إيندیا» ببراءة في وجهه، بعينين زمرديتين واسعتين، فلاحظت البريق في عينيه واللون الذي صبغ وجنتيه.

قالت:

- لن يطول صبرك فقريباً، قريباً نصبح زوجين.

- نعم أيتها الساحرة الصغيرة! سنتم إجراءات الزواج في أقرب فرصة ممكنة.

تشابكت أصابعهما بقوة، وسارا يداً بيد مبتعدين عن الماضي نحو مستقبل زاهٍ يملؤه الحب.

***